المعجب في تلخيص أخبار المغرب

عبد الواحد المراكشي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفني الأمم وباعث الرمم وواهب الحكم ذي البقاء والقدم الذي لا مطمع في إدراكه لثواقب الأذهان ونوافذ الهمم أحمده على ما علم وألهم وسوغ وأنعم وصلى الله على كاشف الظلم ورافع التهم وموضح الطريق الأمم المخصوص بجوامع الكلم والمبتعث إلى جميع العرب والعجم وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم وسلم عليه وعليهم وشرف وعظم.

وبعد – أيها السيد الذي توالت علي نعمه وأخذ بضبعي من حضيضي الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه وقضى إحسانه إلي ومحبته التي جلبت عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه فإنك سألتني – بوأك الله أعلى الرتب كما عمر بك أندية الأدب ومنحك من سعادتي الدنيا والآخرة أوفر القمع كما جمع لك فضيلتي التدبير والقلم – إملاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا – وهو سنة 621 – وأن ينضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيته أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل؛ فلم أر بداً من إسعافك والمسارعة إلى ما فيه رضاك؛ إذ هي الغاية التي أجري إليها والبغية التي أثابر أبداً عليها ولوجوب طاعتك علي من وجوه يكثر تعدادها فاستخرت الله – عز وجل – فيما ندبتني إليه واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه فهو الموئل والملجأ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا مع أني أعتذر إلى مولانا – فسح الله في مدته – من تقصير إن وقع بثلاثة أوجه من الأعذار: فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العي على طباعه فمهما وقع في هذا الإملاء من فتور لفظ أو إخلال بسرد فهو خليق بذلك.

والوجه الثاني أنه لم يصحبني من كتب هذا الشأن شيء أعتمد عليه وأجعله مستنداً – كما جرت عادة المصنفين – وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إلي لأحد فيها تأليف أصلاً خلا أني سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعاً.

والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت؛ وجبت ذلك هموم تزدحم على

الخاطر وغموم تستغرق الفكر فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضي لا زال مجده العالي يرفع الهمم ويعقد الذمم ويوصل النعم ويعمر ربوع الفضل والكرم.

فصل في ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة 621 إذ هي كانت معتمد المغرب الأقصى والمعتبرة منه والمنظور إليها فيه وهي كانت كرسي المملكة ومقر التدبير وأم قرى تلك البلاد لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني فصارت إذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العدوة ثم تغلب عليها المصامدة بعده فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا فأقول وبالله التوفيق: أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس وهو البحر الرومي مما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزقاق سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً وهذا الخليج هو ملتقى البحرين – أعني بحر مانطس وبحر أقيانس – وحداها الشمالي والمغربي البحر الأعظم وهو بحر أقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة وحدها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين بحر الروم وهو مانطس والبحر الأعظم ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس وحداها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافة كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الأندلس هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسة من الأرض الكبيرة أرض الروم التي هي بلاد إفرنجة العظمى.

والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أقيانس الذي لا عمارة وراءه.

ومسافة ما بين طليطلة التي هي قريبة من وسط الأندلس ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة قريب من أربعين مرحلة ووسط الأندلس كما ذكرنا مدينة طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوط من قبائل الإفرنج ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ما سيأتي بيانه وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس.

وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء على البحر الجنوبي منها وعرضها ست وثلاثون درجة وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التي على ساحلها الشمالي وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة.

فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس في الإقليم الخامس أميل إلى الشمال فلذلك اشتد بردها وطالت مدة

الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغلظ ما هي فنبت عن كثير من الحكمة.

وطائفة من الأندلس في الإقليم الرابع كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية فهذه البلاد التي ذكرنا في الإقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهاً من البلاد التي في الإقليم الخامس وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك إذ كان للميول والسموت في اللغات تأثير بين لمن استقرأ ذلك وفهم علته.

وجملة مدن الأندلس التي هي أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولي الأمر منها أولاها في الحد الشمالي مدينة شلب ثم مدينة أشبيلية ثم قرطبة ثم جيان ثم أغرناطه ثم المرية ثم مرسية ثم بلنسية ثم مالقة – وهي على البحر الرومي –.

فالذي على البحر الأعظم من هذه المدائن شلب وأشبيلية وبينهما قريب من خمس مراحل.

والذي على البحر الرومي المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي من أعمال أشبيلية ثم مالقة وهي مستقلة ثم المرية ثم دانية هذه كلها على البحر الرومي.

ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل.

ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس في غرة المائة الثانية تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسي المملكة ومقر الإمارة فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية بالأندلس فتغلب على كل وجهة من الجزيرة متغلب – على ما سيأتي بيانه –.

وهذه المدن التي ذكرت هي التي يملكها المسلمون اليوم وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها في هذا الموضع إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الأندلس تعرف ذلك بقول "أعادها الله للمسلمين".

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين.

ذكر فتح جزيرة الأندلس ولمع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها

ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها:

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق: افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة 92 من الهجرة وكان فتحها على يدي طارق قيل: ابن زياد وقيل ابن عمرو وكان والياً على طنجة مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان في أقصى المغرب بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق وبالمجاز رتبه فيها موسى بن نصير أمير القيروان وقيل أن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على

العساكر وانصرف إلى أبيه لأمر عرض له فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء منتهزاً لفرصة أمكنته وذلك أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم خطب إلى الملك الأعظم ابنته فأغضب ذلك الملك ونال منه وتوعده فلما بلغه ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك فبلغ طارقاً خلو تلك الجهة فهذه الفرصة التي انتهزها.

وقيل إن العلج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره وهو أن لذريق ملك الجزيرة – – لعنه الله – – كان له رسم يوجه إليه أعيان قواده وأمراء دولته ببناتهم فيربيهن عنده في قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه... فإذا بلغت الجارية منهن وحسن أدبها زوجها في قصره لمن يرى أنه كفء أبيها فوجه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء فرآها يوماً فأعجبته فدعاها فأبت عليه وقالت لا والله حتى تحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجني هذا بعد مشورة أبي! فغلبته نفسه واغتصبها على نفسها فكتبت إلى أبيها تعلمه بذلك فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح فالله أعلم أي ذلك كان.

فأول موضع نزله – فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم نزلها قبيل الفجر فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه فبنى بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات وهو باق إلى وقتنا هذا أسأل الله إبقاءه إلى أن تقوم الساعة.

ثم دخل طارق هذا الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها وكتب إلى موسى بن نصير – موليه – بخبر الفتح وغلبته على ما غلب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم فحسده موسى على الانفراد بذلك وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه وكتب إلى طارق يتوعده إذ دخلها بغير إذنه ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذي ينتهي إليه الكتاب فيه حتى يلحق به وخرج متوجهاً إلى الأندلس واستخلف على القيروان ابنه عبد الله وذلك في رجب من سنة 93 وخرج معه حبيب بن أبي عبدة الفهري ووجوه العرب والموالي وعرفاء البربر في عسكر ضخم ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة – وقتل لذريق الملك – – لعنه الله – – بالأندلس فتلقاه طارق وترضاه ورام أن يستل ما في نفسه من الحسد له وقال: له إنما أنا مولاك ومن قبلك وهذا الفتح لك وبسببك وحمل طارق إليه ما كان غنم من الأموال فلذلك نسب الفتح إلى موسى بن نصير لأن طارقاً من قبله ولأنه أتم من الفتح ما كان بقي على موسى.

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً وجامعاً للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة 93 وسنة 94 وأشهراً من سنة خمس وتسعين وقبض على طارق ثم استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى وترك معه من

العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو ورجع إلى القيروان ثم سار منها بما حصل له من الغنائم وأعده من الهدايا إلى الوليد بن عبد الملك – وكان مما وجد بمدينة طليطلة حين فتحها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فيقال إنها طوق ذهب وطوق فضة مكللة باللؤلؤ والياقوت – ومعه – فيما يقال طارق فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية في سنة 96 ما معه إلى سليمان بن عبد الملك ويقال إنه وصل وأدرك الوليد حياً فالله أعلم.

وأقام عبد العزيز بن موسى بن نصير أميراً على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة فيهم حبيب بن أبي عبدة الفهري وزياد بن النابغة التميمي فقتله بعضهم وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك – وذلك في صدر سنة 98 – بعد أن أمروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير ويقال إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكروا من أمره فأمرهم بما فعلوه فالله أعلم.

ثم اختلف الأمر هنالك ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم وال ثم ولي عليها السمح بن مالك الخولاني قبل المائة واجتمع عليه الناس ثم ولي عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم وليها عنبسة بن سحيم الكلبي وعزل الغمر بن عبد الرحمن ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكي نحواً من العشر ومائة – وكان رجلاً صالحاً – ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهري ثم عقبة بن الحجاج فهلك عقبة بالأندلس ورد عبد الملك بن قطن ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك وشهد له بعض من كان معه ووقعت فتن من أجل ذلك وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء حتى أرسل إليهم والياً أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي فحسم مواد الفتن وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب دولتهم في المشرق.

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكر هاهنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط: فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة.

ومنهم حنش بن عبد الله الصنعاني يروي عن علي بن أبي طالب وفضالة بن عبيد.

ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

ومنهم يزيد بن قاسط وقيل ابن قسيط السكسكي المصري يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ومنهم موسى بن نصير الذي ينسب الفتح إليه يروي عن تميم الداري.

فصل في فضل المغرب

وقد جاء في فضل المغرب غير حديث فمن ذلك ما حدثني الفقيه الإمام المتقن المتفنن أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل الشيباني سماعاً عليه بمكة في شهر رمضان من سنة 620 قال: حدثني المؤيد بن عبد الله الطوسي قراءة عليه بنيسابور قال: حدثنا الإمام كمال الدين محمد بن أحمد بن صاعد القراوي قراءة عليه قال: حدثنا ابن عبد الغافر الفارسي حدثنا محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودي حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال: حدثنا يحيى بن يحيى عن هشام بن بشر الواسطي عن داود بن أبي هند بن أبي عثمان النهدي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".

ومن فضل الأندلس أنه لم يذكر قط أحد على منابرها من السلف إلا بخير.

وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قبل بني أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر فلما اضطرب أمرهم في سنة 136 بقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اشتغلوا عن مراعاة أقاصي البلاد ووقع الاضطراب بإفريقية والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة إلى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ففعلوا وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري فسكنت به الأمور واتفقت عليه القلوب واتصلت إمارته إلى سنة 138 بعد ذهاب دولة بني أمية بست سنين.

ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس الملقب بالداخل فقامت معه اليمانية وحارب يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري الوالي على الأندلس المذكور آنفاً فهزمه واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة 172.

وكان مولده بالشام سنة 113 أمه أم ولد اسمها راح ويكنى أبا المطرف دخل الأندلس في ذي القعدة واستولى على قرطبة دار ملكها في التاريخ المذكور وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بني العباس فلم يزل مستتراً ينتقل في بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال فلم يزل يصرف حيله ويسمر بهيبته – والقدر مع ذلك يوافقه – إلى أن احتوى على ملكها وملك بعض بلاد العدوة وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر عنده قال: ذاك صقر قريش.

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي وله أدب وشعر ومما أنشد وقاله يتشوق إلى معاهدة بالشام قوله:

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي!

وله شعر كثير أبرع من هذا أورده المؤرخون في كتبهم وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة – دار الملك – إلى أن توفي اثنتين وثلاثين سنة.

ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن

ثم ولي بعد عبد الرحمن ابنه هشام يكنى أبا الوليد وسنه حينئذ خمس وثلاثون سنة واتصلت ولايته سبعة أعوام إلى أن مات في صفر سنة 180 وكان حسن السيرة متحرياً للعدل يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوي البيوتات من الضعفاء لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات في التاريخ المذكور أمه أم ولد اسمها حوراء.

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضي

ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكنى أبا العاص أمه أم ولد اسمها زخرف وكان طاغياً مسرفاً وله آثار سوء قبيحة وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم وكان الربض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل بهم ذلك فسمى الحكم الربضي لذلك.

وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع – أعني صوامع المساجد – وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا "يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه المصر على كبره المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك." وما نحا هذا النحو فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء هم الذين كانوا

يحرضون العامة ويشجعونهم إلى أن كان من أمرهم ما كان.

وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس أنه لما تسور عليه القصر وأحس بالشر قال: لأخص غلمانه اذهب إلى فلانة – إحدى كرائمه – وقل لها تعطيك قارورة الغالية فأبطأ الغلام وتلكأ فأعاد ذلك عليه فقال: يا مولاي هذا وقت الغالية؟ فقال: له ويلك يا ابن الفاعلة! بم يعرف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمخاً بالغالية؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيل من ورائهم فانهزموا وقتلوا قتلاً قبيحاً وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا فرجع بعضهم إلى الأندلس واختار بعضهم سكنى صقلية وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية.

ومن أعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الوقعة قال: كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضاً رجل من الفقهاء اسمه طالوت كان جليل القدر في الفقهاء رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه وكان قوياً في دينه فلما أوقع الحكم بأهل الربض كما ذكرنا وأمر بتغريب من بقي منهم كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال فاستخفى في دار رجل يهودي سنة كاملة – واليهودي في كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ويعظمه أشد التعظيم – فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء فاستدعى اليهودي وشكره على إحسانه إليه وقال: له قد عزمت غداً على الخروج وقصد دار فلان الكاتب لأنه قرأ علي ولي عليه حق التعليم وقد بلغني أن له جاهاً عند هذا الرجل فعسى هو يشفع لي عنده فيؤمنني ويدعني في بلدي! فقال: له اليهودي يا مولاي لا تفعل فما آمنهم عليك وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أمله ذلك ولا ثقل عليه فأبى إلا الخروج فخلى بينه وبين ذلك فخرج حتى أتى دار ذلك الكاتب بغلس فاستأذن عليه فأذن له فلما دخل عليه رحب به وأدنى مجلسه وسأله أين كان في هذه المدة فقص عليه قصته مع اليهودي ثم قال: له اشفع لي عند هذا الرجل حتى يؤمنني في نفسي ويمن علي بتركي في بلدي! فوعده بذلك وركب من فوره ودخل على الحكم فقال: له كل ما سمع من طالوت ووشى به إليه فأحضره الحكم إليه فعنفه ووبخه فقال: له طالوت كيف يحل لي أن أخرج عليك وقد سمعت مالك بن أنس يقول: "سلطان جائر مدة خير من فتنة ساعة؟" قال: الحكم الله تعالى! لقد سمعت هذا من مالك؟ قال: طالوت اللهم إني قد سمعته قال: فانصرف إلى منزلك وأنت آمن ثم سأله أين استتر فقال: عند يهودي مدة عام ثم إني قصدت هذا الوزير فغدر بي! فغضب الحكم على أبي البسام وعزله عن

وزارته وكتب عهداً ألا يخدمه أبداً فرئي أبو البسام الكاتب بعد ذلك في فاقة وذل فقيل استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت – – رحمه الله – تعالى –.

فقال وقد مضى ليل وثان ولم يسمعه غني ليت شعري
أجاري المؤنسي ليلاً غناءً لخير قطع ذلك أم لشر؟
فقالوا إنه في سجن عيسى أتوه به بليل وهو يسري
فنادى بالطويلة وهي مما يكون برأسه لجليل أمر
ويمم جاره عيسى بن موسى فلاقاه بإكرام وبر
وقال أحاجة عرضت فإني لقاضيها ومتبعها بشكر!
فقال سجنت لي جاراً يسمى بعمرو قال: يطلق كل عمرو
بسجني حيث وافقه اسم جار الفقيه ولو سجنتهموه بوتر!
فأطلقهم له عيسى جميعاً لجار لا يبيت بغير سكر!
فإن أحببت قل لجوار جار وإن أحببت قل لطلاب أجر
فإن أبا حنيفة لم يؤب من تطلبه تخلصه بوزر

وتلخيص هذه الحكاية التي نظمها أبو عمر في شعره أن أبا حنيفة – رحمه الله – كان يجاوره رجل كيال فكان كل ليلة يأخذ سمكة ورغيفاً وشيئاً من النبيذ فإذا صلى العشاء الآخرة أكل ثم شرب حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يعيده حتى يغلبه النوم وكان أبو حنيفة – على ما اشتهر عنه – يحيي الليل كله صلاة فلما كان في بعض الليالي فقد صوت ذلك الرجل فقال: لبعض من عنده ما فعل جارنا هذا الذي كان يغني كل ليلة؟ أهو مريض أم غائب؟ فقالوا له إنه مسجون! فقال: ومن سجنه؟ فقالوا خرج في الليل لبعض حاجته فلقيه أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطة فأتوا به فأمر بسجنه فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى في بيته فلما أعلم عيسى بمكان أبي حنيفة خرج يتلقاه مسرعاً وبالغ في تكريمه وبره وسأله عن حاجته فقال: لي في سجنك جار اسمه عمرو فقال: عيسى يطلق كل من كان اسمه عمرو بسجني من أجل جار الفقيه فأطلقه وخلقاً كثيراً معه فأتى الرجل أبا حنيفة يتشكر له فلما وقعت عينه عليه قال: له أضعناك؟ قال: الرجل لا والله بل حفظت الجوار – حفظك الله –.

والبيت الذي نظمه أبو عمر وكان يغني به الرجل جار أبو حنيفة هو للعرجي رجل من ولد عثمان بن عفان سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن.

ولأبي عمر هذا شعر كثير الجيد وهو من الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الأندلس فمما على حفظي له أول قصيدة يمدح بها أبا علي القالي المتقدم الذكر وهي:

من حاكم بيني وبين عذولي	الشجو شجوي والعويل عويلي
أقصر فما دين الهوى كفر ولا	أعتد لومك لي من التنزيل
عجباً لقوم لم تكن أذهانهم	لهوى ولا أجسادهم لنحول
دقت معاني الحب عن أفهامهم	فتأولوه أقبح التأويل
في أي جارحة أصون معذبي	سلمت من التعذيب والتنكيل
إن قلت: في عيني فثم مدامعي	أو قلت: في قلبي فثم غليلي
لكن جعلت له المسامع موضعاً	وحجبتها عن عذل كل عذول

هذا ما بقي في حفظي منها وكان أبو عمر هذا من مقدمي شعراء الحكم المستنصر وكان مختصاً بأبي الحسن المصحفي منضوياً إليه وهو الذي حمله على هجو محمد بن أبي عامر فلما أفضى الأمر إلى محمد قبض على المصحفي واستصفى أمواله ووضعه في المطبق فلم يزل به حتى مات جوعاً وهزالاً وأما ما كان من أبي عمر الشاعر فإنه أوسعه عقوبة ونكالاً وأمر بتغريبه فشفع له عنده في أن يتركه ببلده فأذن في ذلك غير أنه خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة أمر مناديه أن ينادي بذلك في جميع جهات قرطبة فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة في آخر أيام أبي عامر.

وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين فاتصلت ولايته إلى أن مات في صفر سنة 366 فكانت مدة ولايته منذ بويع له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهراً وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد لم يعش له ولد غيره.

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر وتغلب المنصور بن أبي عامر:

ثم ولي بعده ابنه هشام بن الحكم يكنى أبا الوليد أمه أم ولد اسمها صبح وسنه إذ ولي عشرة أعوام وأشهر فلم يزل متغيباً لا يظهر ولا ينفذ له أمر وكان الذي تغلب على أمره أولا وتولى حجابته وتنفيذ أموره

وتدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني.

وكان أصل ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء من قرية من أعمالها تسمى طرش على نهر يسمى وادي آروا إلا أنه كان شريف البيت قديم التعين ورد شاباً إلى قرطبة فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميز في ذلك وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالي الأمور وتزيد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك وله في ذلك أخبار عجيبة قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي طرفاً في كتابه المترجم بالأماني الصادقة فمن جملتها قال: الحميدي: حدثني أبو محمد علي بن أحمد بن حزم قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن إسحاق التميمي قال: كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه فقلت: له ما أراك نمت الليلة؟! قال: لا قلت: فما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة! قلت: في ماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضى إلي الأمر ومات محمد بن بشير القاضي بمن أستبدله ومن الذي يقوم مقامه؟ فجلت الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً. قلت: لعله محمد بن السليم؟ قال: هو والله هو لشد ما اتفق خاطري وخاطرك!.

قال: الحميدي وأخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد قال: كان ابن أبي عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال: لهم ليختر كل واحد منكم خطة أولية إياها إذا أفضى إلي الأمر! فقال: أحدهم توليني قضاء كورة رية وهي مالقة وأعمالها فإنه يعجبني هذا التين الذي يجيء منها!.

وقال: الآخر توليني حسبة السوق فإني أحب هذا الإسفنج!.

وقال: الثالث إذا أفضي إليك الأمر فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع علي الذباب والنحل!.

وافترقوا على هذا فلما أفضى الأمر إليه كما تمنى بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب!.

و لم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام المؤيد بن الحكم والنظر في أموالها وضياعها فزاد أمره في الترقي معها إلى أن مات الحكم المستنصر وكان هشام صغيراً كما ذكرنا وخيف الاضطراب فضمن لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها وكان قوي النفس وساعدته المقادير وأمدته المرأة بالأموال فاستمال العساكر إليه وجرت أحوال علت قدمه فيها حتى صار صاحب التدبير والمتغلب على الأمور وحجب هشاماً المؤيد وتلقب هو بالمنصور فأقام الهيبة فدانت له

أقطار الأندلس كلها وأمنت به و لم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته لعظم هيبته وفرط سياسته.

واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفي ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الذي اختصر كتاب العين – وقد تقدم ذكره – وكان قد ولاه شرطته وكان الزبيدي هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه.

واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي البغدادي وله معه أخبار مستطرفة ولعلي سأورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً في إكرام من ينسب إلى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلاً به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه ورد عليه الأندلس في أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي المذكور آنفاً فعظمت مترلته عنده ونال منه أموالاً جمة وكان وروده عليه سنة 380 أظن أصله من بلاد الموصل دخل بغداد فقرأ بها وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعاً فأكرمه المنصور وأفرط في الإحسان إليه والإفضال عليه وكان مع ذلك محسناً لظريف السؤال حاذقاً في استخراج الأموال طيباً بلطائف الشكر.

أخبرني بعض مشايخ الأندلس بإسناد له أن أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر يوماً في مجلس أنسه وقد كان تقدم له أن اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه فلبسه تحت ثيابه فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد تجرد وبقي في القميص المتخذ من الخرائط فقال: له ما هذا يا أبا العلاء؟ فقال: هذه الخرائط التي وصلت إلي فيها صلات مولانا أتخذها شعاراً وبكى وأتبع ذلك من الشكر فصلاً كان رواه فأعجب ذلك المنصور وقال: له لك عندي مزيد وكان كما قال.

وألف له أبو العلاء هذا كتباً فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحطه بين يديه وعبر الغلام النهر نهر قرطبة فخانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب فقال: في ذلك بعض الشعراء – وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف – بيتاً مطبوعاً بحضرة المنصور وهو:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص!

فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعداً ولا هاله وقال مرتجلاً مجيباً لابن العريف:

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص !

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجي أبي السري سهل بن أبي غالب سماه كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف وكتاب آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب – أعني الجواس – حتى رتب له من يخرجه أمامه كل ليلة ويقال إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولي الأمور بعده من ولده وادعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصا ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبد الملك بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وهو الذي ولي بعد أبيه وأولها:

إليك حدوت ناجية الركاب	محملة أماني كالهضاب
وبعت ملوك أهل الشرق طراً	بواحدها وسيدها اللباب

وفيها يقول:

إلى الله الشكية من شكاة	رمت ساقي فجل بها مصابي
وأقصتني عن الملك المرجى	وكنت أرم حالي باقترابي

ومما استحسن له قوله:

حسبت المنعمين على البرايا	فألفيت اسمه صدر الحساب
وما قدمته إلا كأني	أقدم تالياً أم الكتاب

قال: أبو عبد الله الحميدي أخبرني أبو محمد علي بن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر في عيد الفطر سنة 396 – قال: أبو محمد وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر – ولما رآني أبو العلاء أستحسنها وأصغي إليها كتبها لي بخطه وأنفذها إلي انتهى كلام الحميدي.

وكان أبو العلاء كثيراً ما تستغرب له الألفاظ ويسأل عنها فيجيب بأسرع جواب على نحو ما يحكى عن أبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لحمل على التصديق في كل ما يأتي به من ذلك وقد ظهر صدقه في بعض ما قال فمما يحكى عنه من هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوماً وفي يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه القلب والتزيل وهذه عندهم أسماء معاناة الأرض قبل الزرع فقال: له أبا العلاء قال: لبيك مولانا! قال: هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب كتاب القوالب والزوابل لميدمان بن يزيد؟ قال: إي والله يا مولانا رأيته

ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل في جوانبها علامات الوضاع هكذا هكذا. فقال: له أما تستحي أبا العلاء؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا الذي تقدم ذكره وإنما صنعت لك في هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب ونسبته إلى عاملي لأختبرتك! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمر وافق.

وقال له المنصور مرة أخرى – وقد قدم طبق فيه تمر –:يا أبا العلاء ما التمر كل في كلام العرب؟ قال: يقال تمر كل الرجل تمر كلاً إذا التف في كسائه!.

وله من هذا كثير ولكنه مع هذا كان عالماً.

قال: أبو عبد الله الحميدي حدثني أبو محمد علي بن أحمد قال: حدثني الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بن أبي عبدة عن أبي عبد الله العاصمي النحوي قال: لما قدم صاعد بن الحسن اللغوي على المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها فلما رآه ابن أبي عامر كذلك قال: دعوه هو من طبقتي في النحو أنا أناظره قال: ثم سألنا صاعد فقال: ما معنى قول امرئ القيس:

كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حناء بشيب مرجل.؟

فقلنا هذا واضح وإنما وصف فرساً أشهب عقرت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا فقال: صاعد سبحان الله! أنسيتم قوله قبل هذا:

كميت يزل اللبد عن حال متنه   كما زلت الصفواء بالمتنزل؟

قال: فبهتنا كأنا لم نقرأ هذا البيت قط واضطررنا إلى سؤاله عنه فقال: إنما عنى أحد وجهين إما أنه تغشى صدره بالعرق وعرق الخيل أبيض فجاء مع الدم كالشيب وإما شيء كانت العرب تصنعه وهو أنها كانت تسم باللبن الحار في صدور الخيل فيتمعط ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض فأيما عني من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم.

قال: أبو عبد الله وحدثنا أبو محمد علي بن أحمد قال: حدثني أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه أن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول الشماخ بن ضرار:

دار الفتاة التي كنا نقول لها   يا ظبية عطلاً حسانة الجيد

تدني الحمامة منها وهي لاهية   من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا: هي الحمامة تتزل على غصن الأراكة أو الكرمة فتنفضه فتتمكن الظبية منه فترعاه فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال: إن الحمامة في هذا البيت هي المرآة وهي اسم من أسمائها فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالظبية إذا نظرت في المرآة أدنت المرآة منها في المنظر شعرها الذي هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرد فرأته.

ومن عجائب الدنيا التي لا يكاد يتفق مثلها أن صاعد بن الحسن اللغوي هذا أهدى إلى المنصور أبي عامر أيلاً وكتب معه بهذه الأبيات:

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعزل كل مذلل

جدواك إن تخصص به فلأهله ... وتعم بالإحسان كل مؤمل

كالغيث طبق فاستوى في وبله ... شعث البلاد مع المراد المقبل

الله عونك ما أبرك بالهدى ... وأشد وقعك بالضلال المشعل

ما إن رأت عيني وعلمك شاهد ... شروى علائك في معم مخول

أندى بمقربة كسرحان الغضا ... ركضاً وأوغل في مثار القصطل

مولاي مؤنس غربتي متخطفي ... من ظفر أيامي ممنع معقلي

عبد نشلت بضبعه وغرسته ... في نعمة أهدى إليك بأيل

سميته غرسية وبعثته ... في حبله ليتاح فيه تفاؤلي

فلئن قبلت فتلك أسنى نعمة ... أسدى بها ذو منحة وتطول

صحبتك غادية السرور وجللت ... أرجاء ربعك بالسحاب المخضل

فقضى الله في سابق علمه أن غرسية بن شانجه من ملوك الروم – وكان أمنع من النجم – أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيل وسماه غرسية متفائلاً بأسره وهكذا فليكن الجد للصاحب والمصحوب وكان أسر غرسية هذا في ربيع الآخر سنة 385.

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن وقصد صقلية فمات بها في قريب من سنة 410 – فيما بلغني – عن سن عالية.

و لم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلاً لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة وبلغ

من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً فلا يصل غلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من اراده من العساكر غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها في كتابه الذي سماه المآثر العامرية واستقصاها كلها بأوقاها وذكر آثاره فيها وفتح فتوحاً كثيرة ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله وملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناهم من الثياب والحلي والدور وذلك لرخص أثمان بنات الروم فكان الناس يرغبون في بناهم بما يجهزوهن به مما ذكرنا ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة – وكانت ذات جمال رائع – فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية.

وكان في أكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين في السنة وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال وأن يجمع ويتحفظ به فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن ينثر على كفنه إذا وضع في قبره.

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة سالم مبطوناً فصحت له الشهادة وتاريخ وفاته سنة 393 فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة وكان معافري النسب وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيى ابن زكريا التميمي كان يعرف بابن برطل ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلي من قصيدة له:

تلاقت عليه من تميم ويعرب   شموس تلألأ في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم   سحائب تهمى بالندى وبحور

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب اليتمية وقال: فيه القسطلي عندهم كأبي الطيب بصقع الشام هذا قول أبي منصور أو معناه وكنت أنا في أيام شبيبتي مولعاً بشعره كثير الدراسة له فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلاً خلا بيتين هما مما ارتجل في بعض مجالسه وهما:

أجد الكلام إذا نطقت فإنما   عقل الفتى في لفظه المسموع
كالمرء يختبر الإناء بصوته   فيرى الصحيح به من المصدوع

وزارة المظفر بن أبي عامر

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد بن أبي عامر هذا ابنه أبو مروان عبد الملك ابن أبي عامر وتلقب بالمظفر فجرى في الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه وكانت أيامه أعياداً في الخصب والأمان دامت سبع سنين إلى أن مات وثارت الفتن بعده.

وزارة الناصر بن أبي عامر

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر فخلط وتسمى ولي العهد و لم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 399 فخلع هشاماً المؤيد وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن أبي عامر فقتل وصلب.

وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار المتقدم ذكره لما قام تلقب بالمهدي وبقي الأمر كذلك إلى أن قتل محمد بن هشام بن عبد الجبار ورد هشام المؤيد إلى الأمر وذلك يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة 400؛ وبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة 403 فدخل البربر مع سليمان قرطبة وأخلوها من أهلها حاشا المدينة وبعض الربض الشرقي وقتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر – وكان كما ذكرنا – في طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له أمر وغلب عليه في هذا الحصار – أعني حصار البربر – واحد من العبيد بعد محمد بن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر.

تفصيل ما سبق إجماله: ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على هشام بن الحكم في جمادى الآخرة كما تقدم فخلعه وتسمى بالمهدي وكان يكنى أبا الوليد أمه أم ولد اسمها مزنة وكان له ولد اسمه عبيد الله وكان مولد المهدي في سنة 366 وقتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة و لم يزل والياً إلى أن قام عليه – يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة 399 – هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدي فانهزم البربر وأسر هشام ابن سليمان فأتى به إلى المهدي فضرب عنقه.

بدء الفتنة

واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر – وهو ابن أخي هشام القائم المذكور – فنهض بالبربر إلى الثغر واستجاش بالنصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة فبرز إليه جماعة أهل قرطبة فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش وهي الوقعة المشهورة ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير واستتر محمد بن هشام المهدي أياماً ثم لحق بطليطلة وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى دار البقر فانهزم سليمان والبربر واستولى المهدي على قرطبة ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر وكانوا قد عاثوا بالجزيرة فالتقوا بموضع يعرف بوادي أره فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدي وانصرف إلى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي فقتلوه وردوا هشاماً المؤيد – كما تقدم قبل –.

فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قتل سبعة عشر شهراً من جملتها الستة الأشهر التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر وانقرض عقبه فلا عقب له.

ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتلقب بالمستعين بالله:

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة 399 وتلقب بالمستعين بالله ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة 400 فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين بالله ثم خرج عنها في شوال من السنة بعينها فلم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد الأندلس يفسد وينهب ويقفر المدائن والقرى بالسيف والغارة لا يبقي البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة إلى أن دخل قرطبة في صدر شوال سنة 403.

ولاية بني حمود

وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب يسميان القاسم وعلياً ابني حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فجعلهما قائدين على المغاربة ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة وهو علي الأصغر منهما وولى القاسم الجزيرة الخضراء وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً وقد ذكر فيما قبل.

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة فملكوا مدناً عظيمة وتحصنوا فيها فراسلهم علي بن حمود المذكور وقد حدث له طمع في ولاية الأندلس فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه فزحف من سبتة إلى مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر فاستجاب له وأدخله مالقة فتملكها علي بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة فخرج إليه محمد بن سليمان في عساكر البربر فانهزم محمد بن سليمان ودخل قرطبة علي بن حمود وقتل سليمان بن الحكم صبراً: ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة 407 وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً في ذلك اليوم وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة.

وكانت مدة ولاية سليمان – منذ دخل قرطبة إلى أن قتل – ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم وكانت مدته منذ قام مع البربر إلى أن قتل سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً.

وانقطعت دولة بني أمية في هذا الوقت وذكرهم على المنابر في جميع أقطار الأندلس إلى أن عادت بعد ذلك في الوقت الذي نذكره إن شاء الله تعالى.

وكانت أم سليمان هذا أم ولد اسمها ظبية ومولده سنة 354 ترك من الولد ولي عهده محمداً لم يعقب والوليد ومسلمة.

وكان سليمان أديباً شاعراً قال: الحميدي أنشدني أبو محمد علي بن أحمد قال: أنشدني فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادي الشاعر كان يكتب لأبي جعفر أحمد بن سعيد بن الدب قال: أنشدني أبو جعفر قال: أنشدني أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه قال: أبو محمد وأنشدنيها قاسم بن محمد المرواني قال: أنشدنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين:

عجباً يهاب الليث حد سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان

وأقارع الأهوال لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان

ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان

هذي الهلال وتلك بنت المشتري ... حسناً وهذي أخت غصن البان

حاكمت فيهن السلو إلى الضنى ... فقضى بسلطان على سلطان

فأبحن من قلبي الحمى وثنينني ... في عز ملكي كالأسير العاني

لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ذل الهوى عز وملك ثان
ما ضر أني عبدهن صبابة وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمن إلفه خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى في الهوى أهل الهوى عاش الهوى في غبطة وأمان

وإنما قصد المستعين بهذه الأبيات معارضة الأبيات التي عملها العباس بن الأحنف على لسان هارون الرشيد فنسبت إليه وهي:

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصيان
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

أبو محمد الذي يحدث عنه الحميدي هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي قرئ علي نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه أصل آبائه الأدنين من قرية من إقليم لبلة من غرب الأندلس سكن هو وأبوه قرطبة وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزراء ابنه المظفر بعده وكان هو المدبر لدولتيهما وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخي المهدي المذكور آنفاً ثم إنه نبذ الوزارة واطرحها اختياراً وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس وكان على مذهب الإمام أبي عبد الله الشافعي – رحمه الله – أقام على ذلك زماناً ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذي يسلكه ومذهبه الذي يتقلده وهو مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال: بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل بلغني عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له نحو من أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر

الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة 310 وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له.

ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة فمن شعره:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف ... نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ... وفات الذي كنا نقر به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ... وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه ... إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل: أغفلته وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجيء به الكتب!
هنالك يدري أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفته القرب!
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا ... له ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق ... على أنه فسح مهامهه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيع ... وإن زماناً لم أنل خصبه جدب

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه:

ولكن لي في يوسف خير أسوة ... وليس على من بالنبي ائتسى ذنب
يقول وقال الحق والصدق إنني ... حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن المختار له قوله:

لا يشمتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك

ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة وتارة في ذرى تاج على ملك!

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

ولمن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل نمام:

أنم من المرآة في كل ما درى وأقطع بين الناس من قضب الهند

كأن المنايا والزمان تعلما تحيله في القطع بين ذوي الود!

وجد بخطه أنه ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة 384 توفي – رحمه الله – في سلخ شعبان من سنة 456.

وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم.

ولاية ابن حمود الناصر

ثم ولي علي بن حمود على ما تقدم وتسمى بالخلافة وتلقب بالناصر ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمرتضى وزحفوا به إلى غرناطة وهي من البلاد التي تغلب عليها البربر ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحدة نفسه وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفي أمره.

وبقي علي بن حمود بقرطبة مستمر الأمر عامين غير شهرين إلى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة 408 وكان له من الولد يحيى وإدريس.

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود وكان أسن منه بعشرة أعوام وكان وادعاً أمن الناس معه وكان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً وكذلك سائر من ولي منهم بالأندلس.

فبقي القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة 412 فقام عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال وصار بأشبيلية وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال وتسمى بالخلافة وتلقب بالمعتلي فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة فدخلها سنة 413 وهرب يحيى بن علي إلى مالقة فبقي القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره.

وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي كانت معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره وغلب ابن أخيه الثاني إدريس بن علي صاحب سبتة على طنجة وهي كانت عدة القاسم يلجأ اليها إن رأى ما يخافه بالأندلس.

وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة وغلقوا أبوابها دونه وحاصرهم نيفاً وخمسين يوماً وأقام الجمعة في مسجد خارج قرطبة يعرف بمسجد ابن أبي عثمان أثره باق إلى اليوم ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها في شعبان سنة 414 ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه.

وقصد القاسم أشبيلية – وبها كان ابناه محمد والحسن – فلما عرف أهل أشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الألهاني ومحمد بن الحسن الزبيدي ومكثوا كذلك أياماً مشتركين في سياسة البلد وتدبيره ثم استبد القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير وصار الآخران من جملة الناس.

ولحق القاسم بشريش واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار في قبضة ابن أخيه وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر.

وبقي القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس فقتل القاسم خنقا سنة وحمل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك.

فكانت ولاية القاسم منذ تسمى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند أبني أخيه يحيى وإدريس إلى أن قتل – كما ذكرنا – في أول سنة 431 ومات وله

ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن أمهما أميرة بنت الحسن بن قتون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ولاية يحيى بن علي المعتلي

اختلف في كنيته فقيل أبو القاسم وقيل أبو محمد وأمه لبونة بنت محمد ابن الحسن بن القاسم المعروف بقنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان الحسن ابن قنون من كبار ملوك الحسنيين وشجعانهم ومردتهم وطغاتهم المشهورين فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة 413 كما ذكرنا ثم هرب عنها إلى مالقة سنة 414 كما وصفنا ثم سعى قوم من المفسدين في رد دعوته إلى قرطبة في سنة 416 فتم لهم الأمل إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطاف اليفرني فبقي الأمر كذلك إلى سنة 417 ثم قطعت طاعته جماعة البربر وصرفوا عاملهم وبايعوا المعتلي الأموي أخا المرتضى وبقي المعتلي هذا يردد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت كلمة البربر على الاستسلام لأبي القاسم وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن وعظم أمره بقرمونة فصار محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها فخرج يوماً وهو سكران إلى خيل ظهرت من أشبيلية بقرب قرمونة فلقيها وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من أن قتلوه وذلك يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة 427 وكان له من الولد الحسن وإدريس لأمي ولد.

رد الأمر إلى بني أمية: ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبي القاسم كما ذكرنا اتفق رأي أهل قرطبة على رد الأمر إلى بني أمية فاختاروا منهم ثلاثة وهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أخو المهدي المذكور آنفاً وسليمان بن المرتضى المذكور آنفاً ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدي بن الناصر.

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة 414 – وله اثنتان وعشرون سنة – وتلقب بالمستظهر وكان مولده سنة في ذي القعدة يكنى أبا المطرف وأمه أم ولد اسمها غاية.

ثم قام عليه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر مع طائفة من أراذل العوام فقتل عبد الرحمن بن هشام وذلك لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 414 المؤرخة ولا عقب له.

وكان في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس كذا قال: أبو محمد علي بن أحمد وكان خبيراً به لأنه وزر له وقال: الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد كان المستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد وهو القائل في ابنة عمه:

حمامة بيت العبشميين رفرفت ... فطرت إليها من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يداً ... ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا
وإني لطعان إذا الخيل أقبلت ... جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي ... وجاعل وفري عند سائله وفر

وهي طويلة قالها أيام خطبتة لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين قال أبو عامر وكان متهماً في أشعاره ورسائله حتى كتب أبياتاً ليعلى بن أبي زيد حين وفد عليه ارتجالاً فعجب أهل التمييز منه وأما أنا فقد كنت بلوته وكان ورود يعلى فجأة و لم يبرح من مجلسه حتى ارتجل الأبيات وأنا والله أخاف أن يزل فأجاد وزاد هذا آخر كلام أبي عامر.

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله:

ولي محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر لأن مولده في سنة 366 وكنيته أبو عبد الرحمن أمه أم ولد اسمها حوراء وكان أبوه قد قتله ابن أبي عامر في أول دولة هشام المؤيد لسعيه في القيام وطلبه للأمر.

وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفي بالله وكانت ولايته ستة أشهر واياماً وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير وزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته فقل في دولة يديرها حائك!.

و لم يزل كذلك إلى أن خلع وقتل وزيره المذكور في داره دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً فتولوه بالحديد إلى أن برد وخلعوا المستكفي بالله وأخرجوه عن قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب ثم نفوه كما ذكرنا فلحق بالثغور ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الفاطمي.

وانتهى المستكفي المذكور من الثغر إلى قرية تعرف ب "شمنت" بالقرب من مدينة سالم ومعه أحد قواده وهو عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر فكره هذا القائد التمادي معه فاستدعى المستكفي غداءه فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعصارة نبت يقال

له البيش – وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة – فلما أكلها المستكفي مات مكانه فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه فقبره هناك ولا عقب له.

ثم أقام يحيى بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر إلا أنه لم يدخل قرطبة وإنما كان مقيماً بقرمونة كما قد قدمنا إلى أن قتل في التاريخ الذي تقدم ذكره.

ولاية هشام المعتد بالله

ولما انقطعت دعوة يحيى بن علي الفاطمي عن قرطبة في التاريخ الذي ذكرنا أجمع رأي أهل قرطبة على رد الأمر إلى بني أمية وكان عميدهم في ذلك والذي تولى معظمه وسعى في تمامه الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة وقد كان ذهب كل من ينافس في الرياسة ويخب في الفتنة بقرطبة فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور وداخلهم في هذا الأمر فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً.

وكان هشام هذا مقيماً بحصن يدعى ألبنت – من الثغور – عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة 418 وتلقب بالمعتد بالله.

وكان مولده في سنة 364 وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام وسنه يوم بويع له أربع وخمسون سنة أمه أم ولد اسمها عاتب.

فبقي ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك فسار إليها ودخلها في الثامن من ذي الحجة سنة فلم يقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند فخلع وجرت أمور يطول شرحها من جملتها إخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه والنساء حاسرات عن أوجههن حافية أقدامهن إلى أن أدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا فاقاموا هنالك أياماً يتعطف عليهم بالطعام والشراب إلى أن أخرجوا عن قرطبة.

ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقال بقرطبة فلم يزل يجول في الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلب على مدينة لاردة وسرقسطة وأفراغة وطرطوشة وما والى تلك الجهات فأقام عنده هشام إلى أن مات في سنة 427 ولا عقب له فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالأندلس.

نسبه: هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن

الحكم.
وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعدوة إلى الآن.
فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بني أمية بالأندلس على شرط التلخيص.

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها ومن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا وهو سنة 621:

مآل قرطبة بعد انتهاء الدولة الأموية

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالأندلس و لم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ويكنى أبا الحزم وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد.
وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية وهو موصوف بالدهاء وبعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير و لم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك كان يتصاون عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادي من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها واضطلع بحمايتها.

و لم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً جرياً على ما قدمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق إليه وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة و لم يتحول عن داره إليها وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجل رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم وصير أهل الأسواق جنداً له وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه.
وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين وكان آمناً وادعاً وقرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف.
واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة 435 فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً.

ثم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك إلى أن مات.أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة 443.
فغلب عليها بعد أمور جرت الأمير الملقب بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة فدبرها مدة يسيرة إلى أن مات.

وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.
فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك.
وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لإشبيلية.

فصل: رجع الحديث إلى بني حمود ومطمع بني عباد في التغلب على قرطبة:

وأما أحوال الحسنيين فإنه لما قتل يحيى بن علي كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة 427 رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة ونجا الخادم الصقلبي - وهما مدبرا دولة الحسنيين - فأتيا مالقة وهي دار مملكتهم فخاطبا أخاه إدريس بن علي - وكان بسبتة - وكان يملك معها طنجة واستدعياه فأتى مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبتة و لم يبايعا واحداً من ابني يحيى وهما إدريس وحسن لصغرهما فأجابهما إلى ذلك ونهض نجا مع حسن هذا إلى سبتة وطنجة وكان حسن أصغر ابني يحيى ولكنه أسدهما رأياً.
وتلقب إدريس بالمتأيد فبقي كذلك إلى سنة 30 أو 431 فتحركت فتنة وحدث للقاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد صاحب أشبيلية أمل في التغلب على تلك البلاد فأخرج ابنه إسماعيل في عسكر مع من أجابه من قبائل البربر ونهض إلى قرمونة فحاصرها ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة وحصن آخر يدعى استجة فأخذهما وكانا بيد محمد بن عبد الله رجل من قواد البربر من بني برزال فاستصرخ محمد بن عبد الله إدريس بن علي الحسني وقبائل صنهاجة فأمد صاحب صنهاجة بنفسه وأمده إدريس بعسكر يقوده ابن بقنة أحمد بن موسى مدبر دولته فاجتمعوا مع محمد بن عبد الله ثم غلبت عليهم هيبة إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد قائد عسكر أبيه القاضي أبي القاسم فافترقوا وانصرف كل واحد منهم إلى بلده فبلغ ذلك إسماعيل ابن محمد فقوي أمله ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحب صنهاجة وقدر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه فوجه إلي ابن بقنة يسترجعه وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة فرجع إليه والتقت العساكر فما كان إلا أن تراءى الجمعان فولى عسكر ابن عباد منهزماً وأسلموا إسماعيل فكان أول مقتول وحمل رأسه إلى إدريس بن علي الحسني.

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك فنزل عن مالقة إلى جبل بباشتر وهو الذي قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر فتحصن به وهو مريض مدنف فلم يعش إلا يومين ومات وترك من الولد يحيى - قتل بعده - ومحمداً الملقب بالمهدي وحسناً المتلقب بالسامي وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه علي مات في حياة أبيه وترك ابنا اسمه عبد الله أخرجه عمه ونفاه لما ولي.

وقد كان يحيى بن علي المذكور قبل قد اعتقل ابني عمه محمدا والحسن ابني القاسم بن حمود بالجزيرة وكان الموكل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبي الحجاج فحين وصل إليه خبر قتل يحيى جمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان وأخرج محمدا والحسن وقال: هذان سيداكم! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم وانفرد محمد بالأمر دون الحسن وملك الجزيرة إلا أنه لم يتسم بالخلافة وبقي معه أخوه الحسن مدة إلى أن حدث له رأي في التنسك فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم زوجة يحيى بن علي المعتلي.

فلما مات إدريس - كما تقدم - رام ابن بقنة أحمد بن موسى ضبط الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون ثم لم يجسر على ذلك الجسر التام وتحير وتردد.

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن علي إلى نجا الخادم الصقلبي وكان - بسبتة - استخلف عليها من وثق به من الصقالبة وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة ليرتب الأمر له فلما وصلا إلى مرسى مالقة خارت قوى ابن بقنة وهرب إلى حصن كمارش على ثمانية عشر ميلاً من مالقة.

ودخل حسن ونجا مالقة واجتمع إليهما من بها من البربر فبايعوا حسن ابن يحيى بالخلافة وتسمى المستعلي ثم خاطب ابن بقنة وأمنه فلما رجع إليه قبض عليه وقتله وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس.

ورجع نجا إلى سبتة وطنجة وترك مع الحسن رجلاً كان من التجار يعرف بالسطيفي كان نجا كثير الثقة به فبقي الأمر كذلك نحوا من عامين.

وكان الحسن بن يحيى متزوجاً بابنة عمه إدريس فقيل إنها سمته أسفاً على أخيها فلما مات احتاط السطيفي على الأمر واعتقل إدريس بن يحيى وكتب إلى نجا بالخبر.

وكان للحسن ابن صغير عند نجا فقيل إنه اغتاله أيضاً فقتله فالله أعلم.

و لم يعقب حسن بن يحيى فاستخلف نجا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه وركب البحر إلى مالقة فلما وصل إليها زاد في الاحتياط على إدريس بن يحيى وأكد اعتقاله وعزم على محو أمر الحسنيين جملة وأن يضبط تلك البلاد لنفسه فدعا البربر الذين كانوا جند البلد وكشف الأمر إليهم علانية ووعدهم بالإحسان فلم يجدوا لمساعدته بداً فوافقوه في الظاهر وعظم ذلك في أنفسهم باطناً

ثم جمع عسكره ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم فحاربه أياماً ثم أحس بفتور نيات الذين معه فرأى أن يرجع إلى مالقة فإذا حصل فيها نفي من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقو بهم على غيرهم وأحس البربر بهذا منه فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة فدخلا وهما يقولان: البشرى البشرى! فلما وصلا إلى السطيفي وضعا سيفيهما عليه فقتلاه.

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه فقدموه وبايعوه بالخلافة وتسمى بالعالي فظهرت منه أمور متناقضة منها أنه كان أرحم الناس قلباً كثير الصدقات يتصدق كل يوم بخمسمائة دينار ورد كل مطرود عن وطنه إليه ورد عليهم ضياعهم وأملاكهم و لم يسمع بغياً في أحد من الرعية وكان أديب اللقاء حسن المجلس يقول: من الشعر الأبيات الحسان ومع هذا فكان لا يصحب ولا يؤثر إلا كل ساقط رذل ولا يحجب حرمه عنهم وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بني يفرن أعطاه إياه وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده موسى بن عفان السبتي فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه وأنه لا بد من تسليمه إليه قال: له موسى بن عفان "افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين" فبعث به إلى الصنهاجي فقتله.

وكان قد اعتقل ابني عمه محمداً وحسناً ابني إدريس بن علي في حصن إيرش فلما رأى ثقته الذي في الحصن اضطراب آرائه خالف عليه وقدم ابن عمه محمد بن إدريس فلما بلغ ذلك السودان المرتبين في قصبة مالقة نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس وراسلوه بالمجيء إليهم وامتنعوا بالقصبة.

واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى واستأذنوه في حرب القصبة والدفاع عنه ولو أذن لهم ما ثبت السودان فواق ناقة فأبى فقال: لهم الزموا منازلكم ودعوني فتفرقوا عنه.

وجاء ابن عمه فسلم عليه وبويع بالخلافة وتسمى بالمهدي وولى أخاه عهده وسماه السامي واعتقل ابن عمه إدريس بن يحيى في الحصن الذي كان هو معتقلا فيه.

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه وراسلوا المرتب في الحصن الذي فيه إدريس بن يحيى هذا واستمالوه فأجابهم وقام بدعوة إدريس.

وقد كان إدريس أول ولايته بعد قتل نجا كما تقدم قد ولى سبتة وطنجة رجلين من بر غواطة قبيلة من قبائل البربر من عبيد أبيه اسم أحدهما رزق الله والآخر سكات فلما خلع إدريس كما تقدم بقيا حافظين لمكانيهما.

فلما قام – كما ذكرنا – بدعوته صاحب حصن إيرش لم يظهر محمد مبالاة بذلك بل ثبت ثباتاً شديداً وكانت والدته تشجعه وتقوي متنه وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلي من أبلى فلما رأى البربر شدة عزمه وثباته فت ذلك في أعضادهم وتخلوا عن إدريس بن يحيى ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة إلى البر غواطيين اللذين ذكرنا وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما في حضانتهما فلما وصل إليهما أظهرا تعظيمه ومخاطبته بالخلافة إلا أنهما حجباه حجاباً شديداً و لم يدعا أحداً من الناس يصل إليه فتلطف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه وقالوا له إن هذين العبدين قد غلبا عليك وحالا بينك وبين أمرك فاذن لنا نكفيكهما فأبى ثم أخبرهما بذلك فنفيا أولئك القوم وأخرجا إدريس بن يحيى وبعثا به إلى الأندلس وتمسكا بولده لصغره إلا أنهما في كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة.

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بالسامي أمرا فنفاه إلى العدوة فصار في جبال غمارة وهي بلاد كنقاد لهؤلاء الحسنيين وأهلها يعظمونهم تعظيماً مفرطاً.

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم الكائن بالجزيرة الخضراء واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر فاستفزه الطمع وخرج إليهم فبايعوه بالخلافة وتسمى بالمهدي وصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها.

فأقاموا معه أياماً ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ورجع محمد خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام فقيل إنه مات غما وترك نحواً من ثمانية ذكور.

فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم إلا أنه لم يتسم بالخلافة.

وبقي محمد بن إدريس المهدي بمالقه إلى أن مات سنة 445.

وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالي عند بني يفرن بتاكرونة فلما توفي محمد بن إدريس بن يحيى المهدي ردت العامة إدريس العالي إلى مالقة واستولى عليها وهو آخر من ملكها من الحسنيين فلما مات أجمع البربر رأيهم على نفي الحسنيين عن الأندلس إلى العدوة والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ففعلوا ذلك وتم لهم ما أرادوا منه.

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكرونة ومالقة وما والاها أيضاً إلى حصن منكب وغرناطة وأعمالها في ملك البربر وملكوا مع ذلك بعض أعمال أشبيلية كحصن أشونة وقرمونة وشلبر و لم يزالوا كذلك إلى أن أخرج من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال أشبيلية المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك.

وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بها حسبما أورده أبو عبد الله محمد ابن أبي نصر الحميدي عليه

عولت في أكثر ذلك ومن كتابه نقلت نقل خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتها جهد ما أقدر. وعلى الله قصد السبيل وهو المسؤل في الهداية قولاً وعملاً.

فصل: يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد بني أمية بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل:

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية فإن أهلها تفرقوا فرقاً وتغلب في كل جهة منها متغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه وتقسموا ألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية وفي ذلك يقول: أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد !

وأنا ذاكر إن شاء الله في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلبوا عليها على نحو ما شرطت من الإجمال إذ لكل منهم أخبار وسير ووقائع لو بسطت القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى حيز الإسهاب و أيضاً فالذي منعني عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلة ما صحبني من الكتب واختلال معظم محفوظاتي.

ملوك الطوائف

فأولهم في الربع الشرقي رجل اسمه سليمان بن هود تلقب بالمؤتمن وتلقب ابنه بالمقتدر وتلقب ابنه بالمستعين.

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية طرطوشة وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفراغة ولا ردة وقلعة أيوب هذه اليوم كلها بأيدي الإفرنج يملكها صاحب برشنونة – – لعنه الله – – وهي البلاد التي تسمى أرغن حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنوني مما يلي بلاد إفرنسة.

ويجاور بني هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان قديم الرياسة هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته ولا أعلم له لقباً كان يملك بلنسية وأعمالها.

وكان يلي الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان بن رزين كان يملك إلى أول أعمال طليطلة.

وكان الذي يملك طليطلة وأعمالها الأمير أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون.

وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة واشرفهم بيتا وأحقهم بالتقدم تلقب بالمأمون كان أبوه إسماعيل هو الذي تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة.

و لم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا إلى أن أخرجه عنها الأدفنش – – لعنه الله – – واستولى عليها النصارى في شهور سنة 478 فهي قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا.

وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى أول الثغر جهور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذي النون والد أبي الحسن المذكور آنفاً.

وكان يملك أشبيلية وأعمالها القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن على ما سيأتي الإيماء إليه إن شاء الله عز وجل.

وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما والى ذلك البربر بنو برزال الصنهاجيون على ما قدمناه.

وتغلب على المرية وأعمالها زهير العامري الخادم ثم ملكها بعده خيران العامري أيضاً الخادم ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتوني في شهور سنة 484.

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهد العامري أصله رومي مولى لأبي عامر محمد بن أبي عامر ثم ملكها بعده ابنه علي بن مجاهد وتلقب بالموفق لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً ولا أطهر عرضاً ولا أنقى ساحة كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها وكان مؤثرا للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها توفي قبل فتنة المرابطين بيسير لا أتحقق تاريخ وفاته.

وكان يملك الثغر الذي من الجهة المغربية من الأندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم ابن الأفطس المتلقب بالمظفر ذهب عني اسمه ثم كان له ابن اسمه عمر يكنى أبا محمد تلقب بالمتوكل على الله كان يملك بطليوس وأعمالها ويابرة وشنترين والأشبونة.

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات للروحي وعيون الأخبار لأبي محمد ابن قتيبة جاء هذا الكتاب في نحو من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ترجمته المظفري.

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً ضربوا أعناقهم في غرة سنة 485.

وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم وفيهم يقول: الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون من أهل مدينة يابرة قصيدته الغراء لابل عقيلته العذراء التي أزرت على الشعر وزادت على السحر وفعلت في الألباب فعل الخمر فجلت عن أن تسامى وأنفت من أن تضاهى فقل لها النظير وكثر إليها المشير وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجرير فلله هي من عقيلة خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت وبعدت حتى عزت فامتنعت أوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذي رسمته مخل بالتلخيص الذي شرطته لصحة مبانيها ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها سلك فيها أبو محمد – رحمه الله – طريقه لم يسبق إليها وورد شرعة لم يزاحم عليها فلذلك قل مثلها لا بل عدم وعز نظيرها فما توهم ولا علم وهي:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور؟
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالإيم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله ... وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحقت اختها طسماً وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوي الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
ومزقت سبأ في كل قاصية ... فما التقى رائح منهم بمبتكر
وأنفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر
ولم ترد على الضليل صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حجر

ودوخت آل ذبيان وإخوتهم … عبساً وغصت بني بدر على النهر
وألحقت بعدي بالعراق على … يد ابنه أحمر العينين والشعر
وأهلكت إبرويزاً بابنه ورمت … بيزدجرد إلى مرو فلم يحر
وبلغت يزدجرد الصين واختزلت … عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ولم ترد مواضي رستم وقنا … ذي حاجب عنه سعدا في ابنة الغير
يوم القليب بنو بدر فنوا وسعي … قليب بدر بمن فيه إلى سقر
ومزقت جعفراً بالبيض واختلست … من غيله حمزة الظلام للجزر
وأشرفت بخبيب فوق فارعه … وألصقت طلحة الفياض بالعفر
وخضبت شيب عثمان دماً وخطت … إلى الزبير ولم تستحي من عمر
ولا رعت لأبي اليقظان صحبته … ولم تزوده إلا الضيح في الغمر
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن … وأمكنت من حسين راحتي شمر
وليتها إذ فدت عمراً بخارجة … فدت علياً بمن شاءت من البشر
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن … أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد … وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
وأردت ابن زياد بالحسين فلم … يبؤ بشسع له قد طاح أو ظفر
وعممت بالظبى فودي أبي أنس … ولم ترد الردى عنه قنا زفر

وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة … كانت بها مهجة المختار في وزر
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا … راعت عياذته بالبيت والحجر
وأعملت في لطيم الجن حيلتها … واستوسقت لأبي الذبان ذي البخر
ولم تدع لأبي الذبان قاضبه … ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر
وأحرقت شلو زيد بعد ما احترقت … عليه وجداً قلوب الآي والسور
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم … تبق الخلافة بين الكأس والوتر
حبابة حب رمان أتيح لها … وأحمر قطرته نفحة القطر

ولم تعد قضب السفاح نائية … عن رأس مروان أو أشياعه الفجر
وأسبلت دمعة الروح الأمين على … دم بفخ لآل المصطفى هدر
وأشرقت جعفراً والفضل ينظره … والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر
وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت … لجعفر بابنه والأعبد الغدر
وما وفت بعهود المستعين ولا … بما تأكد للمعتز من مرر
وأوثقت في عراها كل معتمد … واشرقت بقذاها كل مقتدر
وروعت كل مأمون ومؤتمن … وأسلمت كل منصور ومنتصر
وأعثرت آل عباد لعا لهم … بذيل زباء لم تنفر من الذعر
بني المظفر والأيام لا نزلت … مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت … بمثله ليلة في غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو … من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للظبي وعوالي الخط قد عقدت … أطراف ألسنها بالعي والحصر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم … فأعجب لذاك وما منها سوى الذكر
من لليراعة أو من للبراعة أو … من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع آزفة … أو قمع حادثة تعيا على القدر
ويب السماح وويب البأس لو سلما … وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية … تعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى السعدان مثلهم … واخبر ولو عززا في الحوت بالقمر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا … وكل ما طار من نسر ولم يطر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا … عني مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر من كل شيء فيه أطيبه … حتى التمتع بالآصال والبكر
أين الجلال الذي غضت مهابته … قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذي أرسوا قواعده … على دعائم من عز ومن ظفر؟
أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه … فلم يرد أحد منها على كدر؟

كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا		عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت		هذي الخليقة يا لله في سدر
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خدع		منه بأحلام عاد في خطى الحضر
ويلمه من طلوب الثأر مدركه		منهم بأسد سراة في الوغى صبر
من لي ولا من بهم إن أظلمت نوب		ولم يكن ليلها يفضي إلى سحر؟
من لي ولا من بهم إن عطلت سنن		وأخفيت ألسن الآثار والسير؟
من لي ولا من بهم إن أطبقت محن		ولم يكن وردها يدعو إلى صدر؟
على الفضائل الا الصبر بعدهم		سلام مرتقب للأجر منتظر
يرجو عسى وله في أختها أمل		والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت آذان من فيها بفاضحة		على الحسان حصى الياقوت والدرر
سيارة في أقاصي الأرض قاطعة		شقا شقاً هدرت في البدو والحضر

مطاعة الأمر في الألباب قاضية		من المسامع ما لم يقض من وطر

وكان أبو محمد هذا يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه وهو أحد كتاب المغرب وممن جمع منهم فضيلتي الكتابة والشعر على أنه مقل من النظم لم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره وسيمر من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به.

حكى عن نفسه – رحمه الله – أنه كان بين يدي مؤدبه – وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة – فعن للمؤدب أن قال:

الشعر خطة خسف

وجعل يردد هذا القول قال: الوزير أبو محمد – رحمه الله – فكتبت في لوحي مجيزاً له:

لكل طالب عرف

ثم خطر لي بيت ثان وهو:

للشيخ عيبة عيب		وللفتى ظرف ظرف

قال فنظر إلي المؤذب وقال: يا عبد المجيد ما الذي تكتب؟ فأريته اللوح فلما رآه لطمني وعرك أذني وقال: لا تشتغل بهذا وكتب البيتين عنده.

ومن غزارة حفظه – رحمه الله – ما حدث الوزير الأجل أبو بكر محمد ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر – وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية نيف على الثمانين – قال: بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت: له أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به قال: ما أتيت به معي فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية فسلم وقعد وقال: لي يا بني استأذن لي على الوزير أبي مروان فقلت: له هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف حملني على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عني ساعة وقال: ما هذا الكتاب الذي بأيديكما فقلت: له ما سؤالك عنه؟ فقال: أحب أن أعرف اسمه فإني كنت اعرف أسماء الكتب! فقلت: هو كتاب الأغاني فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه قلت: بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه فقال: وما لكاتبك لا يكتب؟ قلت: طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعأرض به هذه الأوراق فقال: لم أجيء به معي فقال: يا بني خذ كراريسك وعأرض قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟ قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي قال: فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال: يا بني أمسك علي قال: فأمسكت عليه وجعل يقرا فوالله إن أخطأ واواً ولا فاءً قرأ هكذا نحواً من كراستين ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء.

فاشتد عجبي وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه – وأنا بين يديه وهو يوسعني لوماً – حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الجلف إلا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول ما عرفني وأبي يقول: هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب؟!.

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وفلا وخلا به فتحدثا طويلاً ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبداً.

فلما انفصل قلت: لأبي من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم قال: لي اسكت ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغاني وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته.

سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر – رحمه الله – حين دخلت عليه وقد وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهور سنة 595.

وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور في هذا التاريخ لنفسه بعد أن سألني عن اسمي وعن نسبي فتسميت وانتسبت وتسمى لي هو – رحمه الله – وانتسب من غير استدعاء تواضعاً منه وشرف نفس وتهذيب خلق – قدس الله روحه وسامحه –:

لاح المشيب على رأسي فقلت له ... الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا

يا ساقي الكأس لا تعدل إلي بها ... فقد هجرت الحميا والحميم معا!

وأنشدني – رحمه الله – وقال: احفظ عني:

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت ... فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا

رأيت فيها شيخاً لست أعرفه ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى

هذا ما أنشدني لنفسه بلفظه – رحمه الله – وله شعر كثير أجاد في أكثره وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدم فيها وطريقته هي الغاية المقصوى التي يجري كل من بعده إليها هو آخر المجيدين في صناعتها ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك.

رجع القول إلى ملوك الطوائف

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر فلم يذكر خليفة أموي ولا هاشمي بقطر من أقطار الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة أشبيلية وأعمالها حسبما اقتضته الحيلة واضطر اليد التدبير ثم انقطع ذلك حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا.

و لم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختل ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم إلى أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل وحسم الخلاف وأعز الدين وأعلى كلمة الإسلام وقطع طمع العدو بيمن نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني – رحمه الله – ثم استمر على ذلك ابنه علي وأعادا إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها فكانت الأندلس في أيامهما حرماً آمناً وأول دعاء دعي للخلافة العباسية أبقاها الله على منابر الأندلس في

أيامهما و لم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة في بلاد السوس على ما يأتي بيانه إن شاء الله عز وجل.

فصل ملك بني عباد بإشبيلية

وإذ ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال فلنرجع إلى ذكر مملكة أشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس وذكر من ملكها فبذلك يتصل نسق الأخبار عما نريده ويتطرق لنا القول فيما نقصده لأن ملك أشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس على ما سيذكر إن شاء الله تعالى فنقول: اما أحوال أشبيلية فإنها كانت في طاعة الفاطميين أعني علي بن حمود والقاسم بن حمود ويحيى بن علي بن حمود أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره فلما زحف يحيى بن علي بالبرابر إلى قرطبة وهرب القاسم بن حمود منها وقصد أشبيلية – وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها – اجتمع أمر أهل أشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فأخرجوهما وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضاً واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم فتوارد اختيارهم بعد مخض الرأي وتنقيح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله وسعة صدره وعلو همته وحسن تدبيره فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك فتهيب الاستبداد وخاف عاقبة الانفراد أولاً وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً سماهم لكي يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء لا يقطع أمراً دونهم ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن بريم الألهاني وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني في رجال آخرين ذهبت عني أسماؤهم إلا أني أعرف قبائلهم وبيوتهم ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد و لم يزل يدبر أمر أشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه.

وكان له من الولد إسماعيل – وهو الأكبر – يكنى أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من أشبيلية بعسكر من جند أشبيلية فالتقى هو وصاحب صنهاجة فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس بن علي الفاطمي كما تقدم.

وبقي الأمر كذلك – والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير – وكان صالحاً مصلحاً إلى أن مات في شهور سنة 439.

ولاية المعتضد بالله العبادي

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور أشبيلية وأعمالها ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد فجرى على سنن أبيه في إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل مدة يسيرة ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء وواتته مع هذا المقادير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فمنهم من قتله صبراً ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولاً وفقراً إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر وتلقب بالمعتضد بالله.

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله وكان الذي حمله على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل أشبيلية وخاف قيام العامة عليه لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة كالمستظهر والمستكفي والمعتد فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه فادعى ما ادعاه من ذلك وذكر أن هشاماً عنده بقصره وشهد له خواص من حشمه وأنه في صورة الحاجب له المنفذ لأموره وأمر بالدعاء له على المنابر فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة 455 واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس.

و لم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع اقطار الأندلس وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جللها برؤس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول: في مثل هذا البستان فليتنزه.

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس كان قد استوى في مخافته ومهابته القريب والبعيد لا سيما منذ قتل ابنه واكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً وكان سبب ذلك أن ولده المذكور – وكان اسمه إسماعيل – كان يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمني وفاته فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه في عبدان وأراذل معه ورام الفتك بأبيه فانتبه البوابون والحرس فهرب أصحاب إسماعيل واخذ بعضهم فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جعلاً سنياً فالله أعلم فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ.

وبلغني أنه قتل رجلاً أعمى بمكة كان يدعو عليه بها كان هذا الرجل من بادية أشبيلية كان المعتضد قد

وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى وذهب باقي ماله حتى افتقر ورحل إلى مكة فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى ان بلغه عنه ذلك فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حقاً فيه دنانير مطلية بالسم وقال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة وسلم عليه عنا فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحق فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق وقال: هذا من عند المعتضد فأنكر ذلك الأعمى وقال: كيف يظلمني بأشبيلية ويتصدق علي بالحجاز؟ فلم يزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخذ الحق فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب سائرها بيده إلى أن تمكن منه السم فما جاء الليل حتى مات فأعجب لرجل بقاصية المغرب يعتني بقتل رجل بالحجاز!.

وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل أشبيلية فر منه إلى طليطلة فكان يدعو عليه بها في الأسحار مقدراً أنه قد أمن غائلته إذا صار في مملكة غيره فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه.

وكان أكبر من يناوئه من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه البربر صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحي أشبيلية فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استترلهم ففرق كلمتهم وشتت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أموره.

كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عينا له بقرمونة كتاباً في بعض أمره أن استدعى رجلاً من بادية أشبيلية شديد البله كثير الغفلة وقال: له اخلع ثيابك وألبسه جبة جعل في جيبها كتاباً وخاط عليه وقال: له اخرج إلى قرمونة فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحاب الحطب ولا تبعها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي بقرمونة فخرج البدوي كما أمره المعتضد فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب و لم يكن قبل هذا يعاني جمعه فجمع حزمة صغيره ودخل بها البلد ووقف في موقف الحطابين فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته فإذا قال: لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل والناس يسخرون منه فبعضهم يقول: هذا آبنوس ويقول الآخر لا بل هو عود هندي وما أشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد فقال: له بكم تبيع حزمتك هذه؟ فقال: بخمسة دراهم! فقال: قد اشتريتها فاحملها إلى البيت فقام يحملها – والرجل بين يديه – حتى بلغ بيته فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم فلما أخذها وهم بالانصراف قال: له أين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق؟ فبت الليلة عندي فإذا أصبحت رجعت إلى مترلك فأجابه فأدخله إلى بيت وقدم له طعاماً وسأله كأنه لا يعرفه من أين

أنت؟ فقال: أنا من بادية أشبيلية قال: يا أخي ما الذي جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم؟ فقال: حملتني على هذا الحاجة! و لم يظهر له أن المعتضد أرسله فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم فلما رأى غلبة النوم عليه قال: له تجرد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروح لجسمك! فتجرد الرجل ونام وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان فلما أصبح الرجل لبس جبته ورجع إلى أشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن فأدخل على المعتضد فقال: له اخلع تلك الجبة وكساه ثياباً حساناً فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه و لم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه ما أراد من أمره.

وله في تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يسبق إلى أكثرها يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها.

ولما قتل ابنه إسماعيل – كما تقدم – وكان قد لقبه المؤيد عهد بعده إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولقبه بالمعتمد على الله فحسنت سيرة أبي القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته.

أولية المرابطين في مراكش

وفي إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة قبيلتان عظيمتان من البربر رحبة مراكش فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد وكانت إذ نزلوها غيظة لا عمران بها وإنما سميت بعبد أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش فاستوطنها البربر كما ذكرنا وقدموا عليهم رجلاً منهم اسمه تاشفين بن يوسف.

وكان المعتضد في كل وقت يستطلع أخبار العدوة هل نزل البربر رحبة مراكش وذلك لما كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعو ولده ومخرجوه من ملكه فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر إليهم مصعداً ومصوباً ويقول يا ليت شعري من تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم؟ فقال: له أبو القاسم من بينهم جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن يترله بك! فكانت دعوة وافقت المقدار.

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة مراكش في صدر سنة وانفصالهم عنها جملة واحدة في وسط سنة 540 فكانت مدة إقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة نحواً من ست وسبعين سنة.

ثم توفي المعتضد بالله في شهر رجب من سنة 464 واختلف في سبب وفاته فقيل إن ملك الروم سمه في ثياب أرسل بها إليه وقيل إنه مات حتف أنفه فالله أعلم.

:ولاية أبي القاسم بن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالامر من بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد وزاد إلى المعتمد على الله الظافر بحول الله وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس ذكاء نفس وغزارة أدب وكان شعره كأنه الحلل المنشرة واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية مالاً يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة إلى ما يناسب هذه الاخلاق الشريفة وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها.

ولي أمر أشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة فكانت مدة ولايته إلى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها كانت له – رحمه الله – همة في تخليد الثناء وإبقاء الحمد.

عبد الجليل بن وهبون الشاعر

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مرسية اسمه عبد الجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل إلى دقيق المعاني أنشد يوماً بين يدي المعتمد – رحمه الله – بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما:

قل الوفاء فما تلقاه في أحد ... ولا يمر لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربة ... أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فأعجب المعتمد بهما وقال: لمن هذان البيتان فقالوا هما لعبد الجليل بن وهبون أحد خدم مولانا! فقال: المعتمد عند ذلك هذا والله اللؤم البحت رجل من خدامنا والمنقطعين إلينا يقول: أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة وأمر له بألف مثقال فلما دخل عليه يتشكر له قال: له يا أبا محمد هل عاد الخبر عياناً؟ قال: أي والله يا مولاي ودعا له بطول البقاء فلما هم بالانصراف قال: له يا عبد الجليل الآن حدث بها لا عنها يعني ألف مثقال.

وله – رحمه الله – شعر كثير برز في أكثره وأجاد ما أراد وسيمر منه في أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز عند ذوي التمييز فمما اختاره من شعره قوله:

علل فؤادك قد أبل عليل　　　واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك أنفس عام كامل　　　ما كان حقاً أن يقال طويل
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى　　　والعود عود والشمول شمول؟
لا يستبيك الهم نفسك عنوة　　　والكأس سيف في يديك صقيل
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا　　　فالعقل عندي أن تزول عقول!

ومن شعره السيار لا بل الطيار قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه أهداه له صاحب طليطلة اسم المملوك سيف:

سموه سيفاً وفي عينيه سيفان　　　هذا لقتلي مسلول وهذان
اما كفت قتلة بالسيف واحدة　　　حتى أتيح من الأجفان ثنتان
أسرته وثناني غنج مقلته　　　أسيره فكلانا آسر عاني
يا سيف أمسك بمعروف أسير هوى　　　لا يبتغي منك تسريحاً بإحسان!

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح الذي حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة قوله في هذا المملوك وقد عذر:

تم له الحسن بالعذار　　　واقترن الليل بالنهار
أخضر في أبيض تبدى　　　ذلك آسي وذا بهاري
فقد حوى مجلسي تماماً　　　إن كان من ريقه عقاري

وبينا هو يوماً في قبة له يكتب شيئاً أو يطالع وعنده بعض كرائمه فدخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت دونه تستره من الشمس فقال: – رحمه الله – بديهاً:

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها　　　عن ناظري حجبت عن ناظر الغير
علماً لعمرك منها أنها قمر　　　هل تكسف الشمس إلا صورة القمر؟

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها إذ لمع البرق فارتاعت فقال – رحمه الله – بديهاً:

وجعت من البرق وفي كفها　　　برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحا　　　كيف من الأنوار ترتاع؟!

وله مع هذا مقاطع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه ولاستدعاء خاصة جلسائه منعني من استيفائها قلة ما على خاطري منها.

وسيمر من شعره الذي قاله في أيام محنته ما يفجر الصم ويزعزع الشم وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله.

أبو الوليد بن زيدون

فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيرا وإذا مدح أزرى بزهير وإذا فخر أناف على امرئ القيس فمن جملة مقاطعه التي تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله:

بيني وبينك مالو شئت لم يضع ... سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظه مني ولو بذلت ... لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك إن حملت قلبي ما ... لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن ... وول أقبل وقل أسمع ومر أطع!

وهو القائل – رحمه الله – يخاطب بني جهور وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد لأن أصله من مدينة قرطبة فنالته منهم محنة فخرج عن قرطبة إلى أشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده فكان يبلغه عن بني جهور ما يسوءه في نفسه وقرابته بقرطبة فقال: يخاطبهم:

بني جهور أحرقتمو بجفائكم ... فؤادي فما بال المدائح تعبق؟ !
تعدونني كالعنبر الورد إنما ... تفوح لكم أنفاسه حين يحرق

ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافاً قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا

وإذ حصرنا غصون الأنس دانية		قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما		كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
من مبلغ ملبسينا بانتزاحهم		حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا		أنسا بقربهم قد عاد يبكينا!
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا		بأن نغص فقال الدهر: آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا		وانبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا		فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد		بنا ولا أن تسروا كاشحاً فينا
يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم		هل نال حظاً من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم		رأياً ولم نتقلد غيره دينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه		وقد يئسنا فما لليأس يغرينا؟
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به		من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عيني تذكرني		إلفاً تذكره أمسى يعنينا؟
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا		من لو على البعد حياً كان يحيينا
من لا يرى الدهر يقضينا مساعفة		فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا
وبيت ملك كأن الله أنشأه		مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه		من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

إذا تأود آدته رفاهية		تدمي العقول وأدمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته		زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفاً		وفي المودة كان من تكافينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا		إذ طال ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً		منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا		ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

يا روضة طال ما أجنت لواحظنا | ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياة تملأنا بزهرتها | منى ضروباً ولذات أفانينا
ويا نعيماً حضرنا من غضارته | في وشي نعمى سحبنا ذيلها حينا
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة | فقدرك المعتلي عن ذلك يغنينا
إذ انفردت فما شوركت في صفة | فحسبك الوصف إيضاحاً وتبيينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها | والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا | والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا | حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت | عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً | مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي | مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله | شرباً وإن كان يروينا فيظمينا
لم يخف أفق جمال أنت كوكبه | سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناك عن كثب | لكن عدتنا على كره عوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة | فيها الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤوس الراح تبدي من شمائلنا | سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
دومي على العهد ما دمنا محافظة | فالحر من دان إنصافاً كما دينا
فما ابتغينا خليلاً منك يحبسنا | ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه | بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أولي وفاء وإن لم تبذلي صلة | فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا
وفي الجواب قناع لو شفعت به | بيض الأيادي التي ما زلت تولينا
عليك مني سلام الله ما بقيت | صبابة منك تخفيها فتخفينا

أوردها على الاختيار لا على النسق ولعل في كثير مما تركت منها أحسن مما أوردت وإنما منعني من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص.

ومن شعره – رحمه الله – مما قاله في مدة صباه:

أخذت ثلث الهوى غصباً ولي ثلث ... وللمحبين فيما بينهم ثلث
تالله لو حلف العشاق أنهمو ... موتى من الوجد يوم البين ما حنثوا
قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا ... ماتوا فإن عاد من يهوونه بعثوا
ترى المحبين صرعى في عراصهم ... كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا

ومما قال: – رحمه الله – يتشوق ابنة المهدي المذكورة ومعاهد بقرطبة وضمنها بيت أبي الطيب في أول قصيدته الكافورية:

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن !

قصيدة أولها:

هل تذكرون غريباً عاد شجن ... من ذكركم وجفا أجفانه الوسن؟
يخفي لواعجه والشوق يفضحه ... فقد تساوى لديه السر والعلن
يا ويلتاه! أيبقى في جوانحه ... فؤاده وهو بالأطلال مرتهن؟
وأرق العين والظلماء عاكفة ... ورقاء قد شفها أو شفني حزن

فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها ... وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن
يا هل أجالس أقواماً أحبهم ... كنا وكانوا على عهد فقد ضغنوا؟
أو تحفظون عهوداً لا أضيعها ... إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها:

إن كان عادكم عيد فرب فتى ... بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
وأفردته الليالي من أحبته ... فبات ينشدها مما جنى الزمن
بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أبو بكر بن عمار

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العصامية والآداب الأهتمية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي وربما كان أحلى مترعاً منه في كثير من شعره ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس و لم ألف أحداً ممن أدركته سني من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدماً له مؤثراً لشعره وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات!.

فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما أراد قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد – لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه – وهي:

علي وإلا ما بكاء الغمائم ... وفي وإلا ما نياح الحمائم؟

وعني أثار الرعد صرخة طالب ... لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها ... لغيري ولا قامت له في مآتم

وفي هذه القصيدة يقول: يمدح المعتضد بالله:

إذا ركبوا فانظره أول طاعن ... وإن نزلوا فارصده آخر طاعم

أبى أن يراه الله إلا مقلداً ... حميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله:

جاه الهوى فاستشعروه عاره ... ونعيمه فاستعذبوه أواره!

لا تطلبوا في الحب عزا إنما ... عبدانه في حكمه أحراره

قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم ... يا حبذاه وحبذا إضراره

قلبي هو اختار السقام لجسمه ... زياً فخلوه وما يختاره

عيرتموني بالنحول وإنما ... شرف المهند أن ترق شفاره

وشمتم لفراق من آلفته ... ولربما حجب الهلال سراره

أحسبتم السلوان هب نسيمه ... أو أن ذاك النوم عاد غراره

إن كان أعيا القلب من حرب الجوى ... خذلته من دمعي إذن أبصاره

من قد قلبي إذ تثنى قده ... وأقام عذري إذ أطل عذاره

أم من طوى الصبح المنير نقابه ... وأحاط بالليل البهيم خماره

غصن ولكن النفوس رياضه ... رشأ ولكن القلوب عراره

سخرت ببدر التم غرته كما ... أزرت على آفاقه أزراره

ما زال ليل الوصل من فتكاته ... تسري إلي بعرفه أسحاره

ويجود روض الحسن من وجناته ... دمعي فيندى رنده وبهاره

حتى سقاني الدهر كأس فراقه ... فسكرت سكراً لا يفيق خماره

ووقفت في مثل المحصب موقفاً ... للبين من حب القلوب جماره

حيران أعمى الطرف وهو سماؤه ... وأذاب فيه القلب وهو قراره

ولئن يذبه وهو مثواه فكم ... قد أحرقت عود العفارة ناره

إن يهنه أني أضعت لحبه ... قلبي وذاعت عنده أسراره

فليهن قلبي أن شكاه وشاحه ... لسواره فاقتص منه سواره

فوحسنه لقد انتدبت لوصفه ... بالبخل لولا أن حمصاً داره

بلد رمتني بالمنى أغصانه ... وتفجرت لي بالندى أنهاره

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عني بجمعها أهل الأندلس وأنا إن شاء الله مورد منها مالاً يخل بالشرط الذي التزمته ولا يخرج عن الحد الذي رسمته حسبما بقي على خاطري من ذلك لأني كنت في حداثة سني قد صرفت عنايتي إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب وقد فتشت خزانة حفظي فلم ألف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله عز وجل.

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من شلب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس مولده ومولد آبائه بها كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرئاسة في قديم الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر منهم بها أحد ورد مدينة شلب طفلاً فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة وله في ذلك خبر ظريف: وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاه المتعمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المتعضد بالله فكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير فقال:

ما صنع فلان أهو حي قالوا نعم فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال: لرسوله قل له لو ملأتها براً لملأناها تبراً.

و لم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ‏ والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره ‏ لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول: يمدح المعتضد:

عباد المخضر نائل كفه ‏ والجو قد لبس الرداء الأغبرا

قداح زند المجد لا ينفك من ‏ نار الوغى إلا إلى نار القرى

يختار أن يهب الخريدة كاعباً ‏ والطرف أجرد والحسام مجوهرا

وفي هذه القصيدة يقول: في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر:

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد ‏ إلا اليهود وإن تسموا بربرا

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم ‏ لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وخضبت سيفك من دماء نحورهم ‏ لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله:

السيف أفصح من زياد خطبة ‏ في الحرب إن كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها وامر له بمال وثياب ومركب وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب فلم تزل حاله معه تتزيد وموات خدمته له تقوى وتتأكد إلى أن صار ابن عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى إليه من حبل وريده كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار.

ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنهما فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الإيماء إليه فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس إلى أن توفي المعتضد بالله فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه.

وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه – على ما كانت العادة جارية به – إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد فكان ذلك قال: ابن عمارا فهتف بي هاتف في النوم يقول: لا تغتر أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين قال: فانتبهت من نومي فزعاً وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني فأمر بطلبي فطلبت له في نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه فكان هو الذي وقع علي وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف إزاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي وقال: ما هذا يتحرك في هذا الحصير؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عرياناً ليس علي إلا السراويل! فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال: يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا؟ فلم أر بداً من أن صدقته فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها فضحك وقال: يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ثم قال: لي وكيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه وهل أنت عندي إلا كنفسي فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه ومرت على ذلك الأيام والليالي إلى أن كان من أمره ما سيأتي الإيماء إليه فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال!.

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرنا سأله ابن عمار ولاية شلب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه وعزله عنها واستوزره فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد.

و لم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد أشبيلية وقرطبة وأعمالهما وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب وجعل أرضها في غاية الإتقان فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأدفنش فلقيه

في أول بلاد المسلمين فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة في حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأدفنش فنقل خبرها إليه وكان العلج أعني – الأدفنش – مولعاً بالشطرنج فلما لقي ابن عمار سأله كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه فقال: له بلغني أن عندك سفرة في غاية الاتقان! قال: ابن عمار نعم فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال: ابن عمار

لترجمانه قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتني فهي لك وإن غلبتك فلي حكمي فقال: له الأدفنش هلمها لننظر إليها فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العلج صلب وقال: ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد! ثم قال: لابن عمار كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول فقال: له الأدفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ولعله شيء لا يمكنني! فقال: ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه! وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ففعلوا فتعلقت نفس العلج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهونوا عليه وقالوا له إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه وقالوا له إن طلب ابن عمار مالاً يمكن فنحن لك برده عن ذلك و لم يزالوا به حتى أجاب وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة فقال: له قد قبلت ما رسمته فقال: له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهوداً أسماهم له فأمر الأدفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان وكان ابن عمار – كما ذكرنا – طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطعن فلما حقت الغلبة قال: له ابن عمار هل صح أن لي حكمي قال: نعم فما هو؟ قال: أن ترجع من ههنا إلى بلادك! فاسود وجه العلج وقام وقعد وقال: لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي في أمثال لهذا القول وهم بالنكث والتمادي لوجهه فقبحوا ذلك عليه وقالوا له كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك! فلم يزالوا به حتى سكن وقال: لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة! فقال: ابن عمار هذا كله لك! وجاءه بما أراد فرجع وكف الله بأسه ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار إلى أشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سرورا به.

ثم أن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مرسية وأعمالها وهي التي تعرف بتدمير وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها فجهز المعتمد جيوشا عظيمة وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فولاه ما تولى من ذلك وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية فكان بها

إلى أن مات – رحمه الله –.

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه وسول له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها وطمع في ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق كان أبوه من عرفاء الجند بها وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند فسمع ابن عمار بذلك فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها بمن معه أياماً فامتنعت عليه و لم يقدر على دخولها فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته فلم ير إلا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته وبغضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولي نعمته فأخرجوه عن بلادهم.

و لم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشنأه إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة كان المتغلب عليه رجل يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته وأحسن نزله ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال: له لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم فما منهم إلا من يرغب في فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالاً ووجهت بي إليه ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه وكتب فيمن كتب إلى المعتمد: وفي ذلك يقول ابن عمار:

أصبحت في السوق ينادى على ... رأسي بأنواع من المال
والله ما جار على ماله ... من ضمني بالثمن الغالي!

وفي هذا السجن يقول: ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتي بها فقال في ذلك:

بؤسى شقورة عندي ... أربى على كل بوسى
فقدت هارون فيها ... فظلت أطلب موسى

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده فخرجوا به حتى وافوا قرطبة – ووافق ذلك كون المعتمد بها – فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال وقد كان قبل

هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إلى وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه وطرف ثوبه ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه فسبحان محيل الأحوال ومديل الدول!.

فدخل ابن عمار قرطبة – كما ذكرنا – بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرئاسة الفارعة ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه فسبحان من سلبه ما وهبه ومنعه ما كان به أمتعه وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال: لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا فلما رآه ابن عمار – وكان معتماً – أزال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل إلينا فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى فسألناه فيم جاء؟ فقال: الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته.

فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار في ذلك كله مطرق لا ينبس إلى أن انقضى كلام المعتمد فكان من جواب ابن عمار أن قال: ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا – أبقاه الله – ولو أنكرته لشهدت علي به الجمادات فضلاً عمن ينطق ولكني عثرت فأقل وزللت فاصفح! فقال: المعتمد هيهات إنها عثرة لا تقال! وأمر به فاحدر في النهر إلى أشبيلية فدخل به أشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد – المعروف بالقصر المبارك – وهو باق إلى وقتنا هذا – فطال سجنه هناك.

كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لترع عن جوره أو إلى الفلك لكف عن دوره فكانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع وتمائم لم تنفع فمنها قوله:

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح	وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية	فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع	عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإن رجائي أن عندك غير ما	يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة	يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد	أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى	له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها	بهبة رحمى منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم	فكل إناء بالذي فيه يرشح

سيأتيك في أمري حديث وقد أتى / بزور بني عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت فإنني / إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأني بهم لا در لله درهم / أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
وقالوا :سيجزيه فلان بفعله / فقلت: وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشا للمؤيد يرتمي / ولكن حلماً للمؤيد يرجح
ماذا عسى الواشون أن يتزيدوا / سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه / صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى / إلي فيدنو أو علي فينزح
ويهنيه إن مت السلو فإنني / أموت ولي شوق إليه مبرح
وبين ضلوعي من هواه تميمه / ستنفع لو أن الحمام يجلح

ولما بلغت المعتمد هذه المقصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين فجعل يزري على هذا البيت وبين ضلوعي ويقول: ما أراد بهذا المعنى؟ فكان من جواب المعتمد – رحمه الله – أن قال: أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء لما أعدمه الفطنة والذكاء إنما نظر إلى بيت الهذلي من طرف خفي وهو:

وإذا المنية أنشبت أظفارها / ألفيت كل تميمة لا تنفع!

و لم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في شهور سنة 479.

وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم إنشادها فأدركت المعتمد بعض الرقة فوجه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه فأتي به يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر إنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعض ما أراد من ذلك وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته فقال: له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لا صريحاً وأمر برده إلى محبسه فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضي بالله فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحن قديمة فلما قرأ الراضي الكتاب قال: لهم ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص فقالوا له ومن أين علم مولانا ذلك؟ فقال: هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن

عمار أقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل إلى ابن عمار وقال: له هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار فقال: المعتمد للرسول قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في إحداهما القصيدة فما فعلت بالأخرى فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال: المعتمد هلم المسودة فلم يجد جواباً فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف – وقيوده تثقله – حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده و لم يزل يضربه به حتى برد.

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقي على خاطري.

رجع الحديث عن بني عباد

و لم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته و الأيام تساعده والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله – أعني من المتغلبين – ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية وهي التي تعرف بتدمير بينها وبين أشبيلية نحو من اثنتي عشرة مرحلة وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة.

وكان تغلبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة 471 ثم رجع إلى أشبيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه بالمأمون وهو أكبر ولده ولد له في حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً فكان المعتضد يضمه إليه ويقول يا عباد يا ليت شعري من المقتول بقرطبة أنا أو أنت؟ فكان المقتول بها عباد هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها.

أول أمر المرابطين بالأندلس

ولما كانت سنة 479 جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل وسأله عن حاجته فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه وقال: له أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي!.

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبته و لم يدر أن تدميره في تدبيره وسل سيفاً يحسبه له و لم يدر أنه عليه فكان كما قال أبو فراس:

إذا كان غير الله للمرء عدة — أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة — وكان يراها عدة للشدائد

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل فعبر البحر بعسكر ضخم – وكان عبوره من مدينة سبتة – فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس.

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقي الأندلس وسأله المعتمد دخول أشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصد قصده فأبى عليه وقال: إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه.

وكان الأدفنش – – لعنه الله – – محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر.

وتوجه يوسف المذكور إلى شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق – قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار – فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له ويوليه في جهة أشبيلية ولاية فأجابه ابن رشيق إلى ذلك وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها.

ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية.

وقعة الزلاقة

ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره فقال: للمعتمد على الله هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ويتشوق إلى مراكش

ويصغر قدر الأندلس ويقول في أكثر أوقاته كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف! وهو في ذلك كله يسر حسواً في ارتغاء! فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس.

وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زهاء عشرين ألفاً والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم.

وكان الأدفنش – – لعنه الله – – قد استنفر الصغير والكبير و لم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه وجاء يجر الشوك والشجر وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليهم فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم!.

ولما ترائ الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة فقال: للمعتمد ما كنت أظن هذا الخنزير – لعنه الله – يبلغ هذا الحد!.

وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون.

وكان ترائيهم يوم الخميس وهو الثاني عشر من شهر رمضان فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان فكان من قول الأدفنش – لعنه الله –: الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم والأحد لنا فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف وقصد – لعنه الله – مخادعة المسلمين واغتيالهم فلم يتم له ما قصد.

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكي السلاح وقال: لأمير المسلمين صل في أصحابك فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه وها أنا من ورائكم وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى وحمل الأدفنش – لعنه الله – في أصحابه يظن أنه قد انتهز الفرصة وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فأغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل واختلط الفريقان فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد وهزم الله العدو واتبعهم

المسلمون يقتلونهم في كل وجه ونجا الأدفنش – لعنه الله – في تسعة من أصحابه فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس أعز الله فيها دينه وأعلى كلمته وقطع طمع الأدفنش – لعنه الله – عن الجزيرة بعد أن كان يقدر أنها في ملكه وأن رؤوسها خدم له وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين.

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة 480 ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحاً لهم وبهم فسر بهم أهل الأندلس وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور.

ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والتنزه وهو يريد غير ذلك فجال فيها ونال من ذلك ما أحب وفي خلال ذلك كله يظهر إعظام المعتمد وإجلاله ويقول مصرحاً إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحده.

بين المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتد تقريب أمير المسلمين له أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته.

وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجه إلى شرقي الأندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج إليه في وجوه أصحابه وتلقاه لقاء نبيلاً وعزم عليه ليدخلن بلاده فأبى المعتمد ذلك ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطلحا في الظاهر واحتفل المعتصم في إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيراً لغمه وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضله منه ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد إلى بلاده وبأثر ذلك عبر إلى مراكش و لم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين – كما ذكرنا – فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته حتى قربه

أمير المسلمين أشد تقريب وكان يقول: لأصحابه هذان رجلاً هذه الجزيرة! يعني المعتصم والمعتمد وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ووصفه إياه عنده بكل فضل و لم يكن المعصتم بعيداً من أكثر ما وصفه به.

ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما – حسن له ذلك سوء رأيه ودنس سريرته وضعف بصره بعواقب الأمور وليقضي الله أمراً كان مفعولاً وليبلغ القدر ميقاته وإذا أراد الله تمام أمر هيأ له أسباباً – فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك و لم يدر أنه ساقط في البئر التي حفر وقتيل بالسلاح الذي شهر فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين أن جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه وفرط كبره وأنه لا يرى أحدا كفؤا له وزعم أنه قال: له في بعض الأيام – وقد قال: له المعتصم طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة يعني أمير المسلمين – لو عوجت له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكأنك تخاف غائلته وأي شيء هذا المسكين وأصحابه إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجاراً فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد.
وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحابه أجلاً وحد له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكيناً لخاطره فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وغر صدره وتغيرت نفسه.

وما النفس إلا نطفة في قرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها

هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غير عليه!.

نكبة بني عباد

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد فبلغني أنه قال: لبعض ثقاته من وجوه أصحابه كنت أظن أني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها؟ فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا

وكتبوا إلى المعتمد بذلك فأذن لهم بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً.

وقد كانت قلوب أهل الأندلس – كما ذكرنا – قد أشربت حب يوسف وأصحابه فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم وأمر عليهم رجلاً من قرابته يسمى بلجين وأسّر إليه ما أراده فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال: له أين تأمرني بالكون؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من يترله ببعض الحصون التي اختارها لهم فترل حيث أنزلوه هو وأصحابه وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد وكان مبدؤها في شوال من سنة 483 بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتئمة وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة.

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين انتشر ذلك في الأندلس وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم – الكائنون في الحصون – إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون وقد تقدم ذكره وهو من أكبر ولده فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً وأظهر في الدفاع عن نفسه جلداً وصبراً وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة 484 فزادت الإحنة والمحنة واستمرت في غلوائها الفتنة.

وأجمعت على الثورة بحضرة أشبيلية طائفة فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها وأثبت عنده سوء اعتقادها وأغري بتمزيق أديمها وسفك دمها وحض على هتك حريمها وكشف حرمها فأبى له ذلك مجده الأثيل ورأيه الأصيل ومذهبه الجميل وما حباه الله به من حسن اليقين وصحة العقل والدين إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر واستنسروا بغاثاً غير مستنسر فبرز هو من قصره سيفه بيده وغلالته ترف على جسده لا درقة له ولا درع عليه فلقي على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكي السلاح فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة طويل شفرة السنان فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعاً وانهزمت تلك الجموع ونزل المتسنمون للأسوار عنها وظن أهل أشبيلية أن الخناق قد تنفس.

فلما كان عصر ذلك اليوم عاودهم القوم فظهر على البلد من واديه ويئس من سكنى ناديه وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه وشبت النار في شوانيه فانقطع عندها الأمل والقول وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول

وكان الذي ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين يعرف بحدير بن واسنو ومن الوادي رجل يعرف بالقائد أبي حمامة مولى بني سجوت والتوت الحال أياماً يسيرة إلى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة وحشود من الرعية وافرة والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع وخالط قلوبهم الهلع يقطعون السبل سياحة ويعبرون النهر سباحة ويتولجون مجاري الأقذار ويترامون من شرفات الأسرار حرصاً على الحياة والموفون بالعهد المقيمون على صريح الود ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى فيه حمّ الأمر الواقع واتسع الخرق على الراقع ودخل البلد من واديه وأصيب حاضره وباديه بعد أن جد الفريقان في القتال واجتهدت الفئتان في النزال وظهر من دفاع المعتمد – رحمه الله – وبأسه وترامیه على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ولا تناه لخلق إليه وفي ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً:

لما تماسكت الدموع — وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة — فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو — ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنا — ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه — لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا — ع أيسلب الشرف الرفيع؟
قد رمت يوم نزالهم — ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القمي — ص عن الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسي — ل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن — بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط إلى القتا — ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهمو — والأصل تتبعه الفروع!

فشنت الغارة في البلد و لم يترك البربر لأحد من أهلها سبداً ولا لبداً وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحاً وأخذ هو قبضاً باليد وجبر على مخاطبة ابنيه المعتد بالله والراضي بالله وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما أحد الحصنين يسمى رندة والآخر مارتلة فكتب

إليهما – رحمه الله – وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوقما فأنفا من الذل وأبيا وضع أيديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما ثم عطفتهما عواطف الرحمة ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة.

فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ورحل بالمعتمد وآله بعد استئصال جميع أحواله و لم يصحب من ذلك كله بلغة زاد فركب السفين وحل بالعدوة محل الدفين فكان نزوله من العدوة بطنجة فأقام بها أياماً ولقيه بها الحصري الشاعر فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه و لم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به – فيما بلغني – أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها – سقطت من حفظي – ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل – أعني الحصري الأعمى – أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها:

قل لمن قد جمع العـ ... ـلم وما أحصى صوابه
كان في الصرة شعر ... فتنظرنا جوابه
قد أثبناك فهلا ... جلب الشعر ثوابه؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحفي أهل الكدية ما صنع المعتمد – رحمه الله – مع الحصري تعرضوا له بكل طريق وقصدوه من كل فج عميق فقال: في ذلك رحمه الله:

شعراء طنجة كلهم والمغرب ... ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحق فأعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية ... طي الحشا ساواهم في المطلب
قد كان إن سئل الندى يجزل وإن ... نادى الصريخ ببابه اركب يركب

وله في هذا المعنى رحمه الله:

قبح الدهر فماذا صنعا ... كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلماً بمن عادته ... أن ينادي كل من يهوى لعا !

من إذا الغيث همى منهمراً — أخجلته كفه فانقطعا

من غمام الجود من راحته — عصفت ريح به فانتشعا

من إذا قيل الخنا صم وإن — نطق العافون همساً سمعا

قل لمن يطمع في نائله — قد أزال اليأس ذاك الطمعا

راح لا يملك إلا دعوة — جبر الله العفاة الضيعا!

وأقام المعتمد بطنجة – رحمه الله – أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ثم انتقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها فقبره معروف هناك وكانت وفاته في شهور سنة 87 وقيل سنة 488 فالله أعلم وسنه يوم توفي إحدى وخمسون سنة.

فمن أحسن ما مر بي مما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها:

لكل شيء من الأشياء ميقات — وللمنى من مناياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء منغمس — ألوان حالاته فيها استحالات

ونحن من لعب الشطرنج في يده — وربما قمرت بالبيدق الشاة

فانفض يديك من الدنيا وساكنها — فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها الأرضي قد كتمت — سريرة العالم العلوي أغمات

طوت مظلتها لا بل مذلتها — من لم تزل فوقه للعز رايات

من كان بين الندى والبأس أنصله — هندية وعطاياه هنيدات

أنكرت إلا التواءً للقيود به — وكيف تنكر في الروضات حيات

وقلت :هن ذؤابات فلم عكست — من رأسه نحو رجليه الذؤابات؟

رأوه ليثاً فخافوا منه عادية — عذرتهم فلعدوى الليث عادات

وله قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها:

تبكي السماء بدمع رائح غادي — على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التي هدت قواعدها — وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

والرابيات عليها اليانعات ذوت — أنوارها فغدت في خفض أوهاد

عريسة دخلتها النائبات على ... أساود لهم فيها وآساد

وكعبة كانت الآمال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

تلك الرماح رماح الخط ثقفها ... خطب الزمان ثقافاً غير معتاد

والبيض بيض الظبا فلت مضاربها ... أيدي الردى وثلتها دون إغماد

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكل شيء لميقات وميعاد

كم من دراري سعد قد هوت ووهت ... هناك من درر للمجد أفراد

نور ونور فهذا بعد نعمته ... ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد

يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ويا مؤمل واديهم ليسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالوادي

ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر ... لغير قصد فما بهديك من هادي

وفيها يقول:

نسيت إلا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كأموات بألحاد

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجه تمزيق أبراد

تفرقوا جيرة من بعد ما نشؤوا ... أهلاً بأهل وأولاداً بأولاد

حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادي

سارت سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها إبل يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد

من لي بكم يا بني ماء السماء إذا ... ماء السماء أبى سقيا حشا الصادي

وهي طويلة جداً هذا ما اخترت له منها.

أبو بكر الداني

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية وهي على ساحل البحر الرومي كان يملكها مجاهد العامري وابنه علي الموفق – على ما تقدم –.

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز وكانا شاعرين إلا أن عبد العزيز منهما لم يرض الشعر صناعة ولا

اتخذه مكسباً وإنما كان من جملة التجار وأما أبو بكر فرضيه بضاعةً وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيع جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها وجودة المعاني ولطافتها وكان منقطعاً إلى المعتمد معدوداً في جملة شعرائه لم يفد عليه إلا آخر مدته فلهذا قل شعره الذي يمدحه به.

وكان – رحمه الله – مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه قليل المعرفة بعلله لم يجد الخوض في علومه وإنما كان يعتمد في أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته يدل على ذلك قوله في قصيدة له سيرد ما أختاره منها في موضعه:

من كان ينفق من سواد كتابه ... فأنا الذي من نور قلبي أنفق

ولما خلع المعتمد على الله وأخرج من أشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلب في البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميرقة وبها مبشر العامري المتلقب بالناصر فحظي عنده وعلت حاله معه وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح وهذا لم أسمع به لأحد وأول القصيدة:

وضحت وقد فضحت ضياء النير ... فكأنما التحفت ببشر مبشر

وتبسمت عن جوهر فحسبته ... ما قلدته محامدي من جوهر

وتكلمت فكأن طيب حديثها ... متعت منه بطيب مسك أذفر

هزت بنغمة لفظها نفسي كما ... هزت بذكراه أعالي المنبر

أذنبت واستغفرتها فجرت على ... عاداته في المذنب المستغفر

جادت علي بوصلها فكأنه ... جدوى يديه على المقل المقتر

ولثمت فاها فاعتقدت بأنني ... من كفه سوغت لثم الخنصر

سمحت بتعنيقي فقلت صنيعة ... سمحت علاه بها فلم تتعذر

نهد كقسوة قلبه في معرك ... وحشاً كلين طباعه في محضر

ومعاطف تحت الذوائب خلتها ... تحت الخوافق ماله من سمهري

حسنت أمامي في خمار مثلما ... حسن الكمي أمامه في مغفر

وتوشحت فكأنه في جوشن ... قد قام عنبره مقام العثير

غمزت ببعض قسيه من حاجب ... ورنت ببعض سهامه من محجر
أومت بمصقول اللحاظ فخلته ... يومي بمصقول الصفيحة مشهر
وضعت حشاياها فويق أرائك ... وضع السروج على الجياد الضمر
من رامة أو رومة لا علم لي ... أتت عن النعمان أم عن قيصر؟!
بنت الملوك فقل لكسرى فارس ... تعزى وإلا قل لتبع حمير
عاديت فيها غر قومي فاغتدوا ... لا أرضهم أرضي ولا هم معشري
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها ... يتعافرون على الثريد الأعفر
طافت علي بجمرة من خمرة ... فرأيت مريخاً براحة مشتري
فكأن أنملها سيوف مبشر ... وقد اكتست علق النجيع الأحمر
ملك أزرة برده ضمت على ... بأس الوصي وعزمة الإسكندر

هذا ما اخترت له منها: ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا:

هلا ثناك علي قلب مشفق ... فترى فراشاً في فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجى ... ورجعت كالنفس الذي لا يلحق
وغرقت في دمعي وغمني ... طرفي فهل سبب به أتعلق؟
هل خدعة بتحية مخفية ... في جنب موعدك الذي لا يصدق
أنت المنية والمنى فيك استوى ... ظل الغمامة والهجير المحرق
لك قد ذابلة الوشيج ولونها ... لكن سنانك أكحل لا أزرق
ويقال إنك أيكة حتى إذا ... غنيت قيل هو الحمام الأورق
يا من رشقت إلى السلو فردني ... سبقت جفونك كل سهم يرشق
لو في يدي سحر وعندي أخذة ... لجعلت قلبك بعض حين يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الجوى ... وترق لي مما تراه وتشفق
جسدي من الأعداء فيك لأنه ... لا يستبين لطرف طيف يرمق
لم يدر طيفك موضعي من مضجعي ... فعذرته في أنه لا يطرق
جفت عليك منابتي ومنابعي ... فالدمع ينشغ والصبابة تورق

وكأن أعلام الأمير مبشر نشرت على قلبي فأصبح يخفق

وفيها يقول يصف لعب الأسطول في يوم المهرجان:

بشرى بيوم المهرجان فإنه يوم عليه من احتفائك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها ريش الغراب وغير ذلك شوذق
وعلى الخليج كتيبة جرارة مثل الخليج كلاهما يتدفق
وبنو الحروب على الجواري التي تجري كما تجري الجياد السبق
ملأ الكماة ظهورها وبطونها فأتت كما يأتي السحاب المغدق
خاضت غدير الماء سابحةً به فكأنما هي في سراب أينق
عجباً لها ما خلت قبل عيانها أن يحمل الأسد الضواري زورق
هزت مجاديفاً إليك كأنها أهداب عين للرقيب تحدق
وكأنها أقلام كاتب دولة في عرض قرطاس تخط وتمشق

وله فيها إحسان كثير وله من قصيدة يتغزل:

فؤادي معنىً بالحسان معنت وكل موقي في التصابي موقت
ولي نفس يخفى ويخفت رقة ولكن جسمي منه أخفى وأخفت
وبي ميت الأعضاء حي دلاله غرامي به حي وصبري ميت
جعلت فؤادي جفن صارم جفنه فيا حر ما يصلى به حين يصلت
أذل له في هجره وهو ينتمي وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
وما أنبت حبل منه إذ كان في يدي لريحان ريعان الشبيبة منبت

ومن جيد ما له من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أولها:

راق الربيع ورق طبع هوائه فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلافة يحكي مشعشعها مصعد مائه
لولا ذبول الورد قلت بأنه خد الحبيب عليه صبغ حيائه
هيهات أين الورد من خد الذي لا يستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته والطير ليس غناؤها كغنائه

يتنفس الإصباح والريحان من حركات معطفه وحسن روائه
ويجول في الأرواح روح ما سرت رياه من تلقائه بلقائه
صرف الهوى جسمي شبيه خياله من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن ما على خاطري له بيتان يصف بها خالاً وهما:

بدا على خده خال يزينه فزادني شغفاً فيه إلى شغف
كأن حبة قلبي عند رؤيته طارت فقال لها في الخد منه قفي !

ولابن اللبانة هذا إحسان كثير منعني من استقصائه خوف الإطالة و أيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب وإنما يأتي منه فيه ما تدعو إليه ضرورة سياق الحديث.

رجع الحديث إلى أخبار المعتمد

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله.

وبلغني أن رجلاً رأى في منامه قبل الكائنة العظمى على بني عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعاً صوته:

رب ركب قد أناخوا عيسهم في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زماناً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق!

فما كان إلا أشهر يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال: وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات أن آثر حظياته وأكرم بناته ألجئت إلى أن تستدعي غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر من اختلالها فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه إلا ذلك اليوم واتفق أن السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر بمراكش قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه فكتب إليه المعتمد راغباً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه فكتب إليه الوزير مؤدياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومسعفاً له في طلبته واتفق أن دعا له في أثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد في ذلك:

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقي بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب فإن هواي من حتفي اللقاء

أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه إذا أبدو النداء
وطرد الناس بين يدي ممري وكفهمو إذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش إن رفع اللواء
يعنيه أمام أو وراء إذا اختل الأمام أو الوراء
ولكن الدعاء إذا دعاه ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى براً وصاحبك العلاء
سيسلي النفس عما فات علمي بأن الكل يدركه الفناء

وورد عليه أغمات أبو بكر بن اللبانة المتقدم الذكر ملتزماً عهد الوفاء قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن اللبانة على السفر استنفد المعتمد وسعه ووجه إليه بعشرين مثقالاً وثوبين وكتب إليه معها:

إليك النزر من كف الأسير فإن تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياءً وإن عذرته حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه أليس الخسف ملتزم البدور؟
ورج لجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعانت علاه من حضيض وكم حطت ظباه من أمير
وكم من منبر حنت إليه أعالي مرتقاه ومن سرير
زمان تزاحفت عن جانبيه جياد الخيل بالموت المبير

فقد نظرت إليه عيون نحس مضت منه بمعدوم النظير
نحوس كن في عقبى سعود كذاك تدور أقدار القدير
وكم أحظى رضاه من حظي وكم شهرت علاه من شهير
زمان تنافست في الحظ منه ملوك قد تجور على الدهور !
بحيث يطير بالأبطال ذعر ويلفى ثم أرجح من ثبير

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه وصرفه بجملته إليه وكتب مجيباً له عن شعره:

سقطت من الوفاء على خبير ... فذرني والذي لك في ضميري
تركت هواك وهو شقيق ديني ... لئن شقت برودي عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا ... لئن أصبحت أجحف بالأسير
أسير ولا أصير إلى اغتنام ... معاذ الله من سوء المصير
إذا ما الشكر كان وإن تناهى ... على نعمى فما فضل الشكور؟
جذيمة أنت والأيام خانت ... وما أنا من يقصر عن قصير
أنا أدري بفضلك منك إني ... لبست الظل منه في الحرور
غني النفس أنت وإن ألحت ... على كفيك حالات الفقير
تصرف في الندى حيل المعالي ... فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك عن نبع غريب ... تفتح عن جنى زهر نضير
وأعجب منك أنك في ظلام ... وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعني سروراً ... إذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلني رتب المعالي ... غداة تحل في تلك القصور
تزيد على ابن مروان عطاءً ... بها وأنيف ثم على جرير
تأهب أن تعود إلى طلوع ... فليس الخسف ملتزم البدور

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات:

رد بري بغياً علي وبراً ... وجفا فاستحق لوماً وشكراً
حاط نزري إذ خاف تأكيد ضري ... فاستحق الجفاء إذ حاط نزرا
فإذا ما طويت في البعض حمداً ... عاد لومي في البعض سراً وجهرا
يا أبا بكر الغريب وفاءً ... لا عد مناك في المغارب ذخرا
أي نفع يجدي احتياط شفيق ... مت ضراً فكيف أرهب ضرا؟

فأجابه ابن اللبانة رحمه الله.

أيها الماجد السميدع عذراً ... صر في البر إنما كان برا
حاش لله أن أجيح كريماً ... يتشكى فقراً وكم سد فقرا

لا أزيد الجفاء فيه شقوقاً غدر الدهر بي لئن رمت غدرا
ليت لي قوة أو آوي لركن فترى للوفاء مني سرا
أنت علمتني السيادة حتى ناهضت همتي الكواكب قدرا
ربحت صفقة أزيل بروداً عن أديمي بها وألبس فخرا
وكفاني كلامك الرطب نيلاً كيف ألفى دراً وأطلب تبرا!
لم تمت إنما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الأرض قطرا

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد؟!
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعم بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
نعم هو الحق حاباني به قدر من السماء فوافاني لميعادي
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي أخاه الذي غيبت وابله تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حتى يجودك دمع الطل منهمراً من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد

ولا تزل صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة رشحه للملك من بعده وجعله ولي عهده ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاقته الفتنة عن مراده وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده فما برح بفخر الدولة هذا تغير الأيام بعد الفتنة إلى أن أسلم نفسه في السوق وتعلم من الصنائع صنعة الصواغ فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر – شاعر أبيه – فقال في ذلك:

أذكى القلوب أسى أبكى العيون دماً خطب وجدناك فيه يشبه العدما
أفراد عقد المنى منا قد انتثرت وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما
شكاتنا فيك يا فخر الهدى عظمت والرزء يعظم فيمن قدره عظما

طوقت من نائبات الدهر مخنقة ... ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما!
وعاد كونك في دكان قارعة ... من بعد ما كنت في قصر حكى إرما
صرفت في آلة الصواع أنملة ... لم تدر إلا الندى والسيف والقلما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها ... فتستقل الثريا أن تكون فما
يا صائغاً كانت العليا تصاغ له ... حلياً وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى ... هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
وددت إذ نظرت عيني إليك به ... لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى
ما حطك الدهر لما حط من شرف ... ولا تحيف من أخلاقك الكرما
لح في العلا كوكباً إن لم تلح قمراً ... وقم بها ربوة إن لم تقم علما
واصبر فربتما أحمدت عاقبةً ... من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت ... ولو وفى لك مع المزن لانسجما
بكى حديثك حتى الدر حين غدا ... يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما
وروضة الحسن من أزهارها عريت ... حزناً عليك لأن أشبهتها شيما
بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى ... ريحانك الغض يذوي بعد ما نعما
لم يرحم الدهر فضلاً أنت حامله ... من ليس يرحم ذاك الفضل لا رحما
شقيقك الصبح إن أضحى بشارقة ... وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

فصل رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله مع ما تعلق بها وإن كانت مخرجة عن الغرض لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك و أيضاً فليتصل نسق الأخبار عن المملكة – أعني مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين – ولوجه ثالث وهو أن ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة والضعة بعد الرفاهة والقبض بعد البسط من جملة العبر التي أرتناها الأيام والمواعظ التي تصغر الدنيا في عيون أولي الأفهام.

ثم إن يوسف بن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد إذ كان هو كبش كتيبتها وعين

أعيانها وواسطة نظمها فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها فأظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية الثغور ما صدق بهم الظنون وأثلج الصدور وأقر العيون فزاد حب أهل الأندلس لهم واشتد خوف ملوك الروم منهم ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش والخيل إثر الخيل ويقول في كل مجلس من مجالسه إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة وإنما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه ولهو يقطع به أيامه ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأنها عليهم يعني الروم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبي دعوته في أمثال لهذا القول فبلغ ذلك ملوك النصارى فيزداد فرقهم ويقوى – مما بأيدي المسلمين بل مما بأيديهم – بأسهم.

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها و لم يختلف عليه شيء منها عد من يومئذ في جملة الملوك واستحق اسم السلطنة وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين وصار هو وابنه معدودين في أكابر الملوك لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى وأم قراه ومعدن الفضائل منه فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ومعدودون منها فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها ومركز الفضائل وقطب مدارها أعدل الأقاليم هواء وأصفاها جواً وأعذبها ماءً وأعطرها نبتاً وأنداها ظلالاً وأطيبها بكراً مستعذبة وآصالاً.

أرض يطير فؤادي من قرارته ... شوقاً لها ولمن فيها من الناس
قوم جنيت جنى ورد بذكرهم ... فهل بلقياهم أجني جنى آس؟

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم.

أعيان الكتاب في دولة المرابطين

واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار فممن كتب لأمير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من

غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفته به ليس على خاطري منها شيء.

وزارة ابن عبدون

ثم كتب له أو لابنه بعد أبي بكر هذا الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قد تقدم من نعته ما أغنانا عن تكراره ههنا وكان يكتب قبل من كتب له منهما للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو الذي دخل على المعتمد على الله أشبيلية فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين باستدعاء منه له.

من رسائله عنه إلى أمير المسلمين رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شنترين – أعادها الله – وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها فكتب عنه أبو محمد كتاباً: أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه نافذة في السبعة الأقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين.

والحمد لله رب العالمين حمداً يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه لا يرد وجهه نكوص ولا يحد كنهه تخصيص ولا يحزره بقبض ولا ببسط مثال ولا تخمين ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين ولا يسعه أمد يحويه ولا يقطعه أبد يستوفيه ولا يجمعه عدد يحصيه إذا سبقت هواديه لحقت تواليه.

وعلى محمد عبده وأمين وحيه الصادع بأمره ونهيه نظام الأمة وإمام الأئمة سر آدم من بنيه وفخر العالم ومن فيه صلاة تامة نقضيها وتحية عامة نؤديها ترفض ارفضاض الزهر من كمامه وتنفض انفضاض المسك من ختامه فلقد صدع بتوحيده وجمع على وعده ووعيده وأوضح الحق وجلاه ونصح الخلق وهداه إلا من حقت عليه كلمة العذاب وسبقت له الشقوة في أم الكتاب.

وأظهر العزيز – عزت أسماؤه وجلت كبرياؤه – دينه على جميع الأديان على رغم من الصلبان ووقم من الأوثان وأنجز لنا – تعالى – وعده ونصرنا معه – صلى الله عليه وسلم – وبعده وجمع في هذه الجزيرة شمل الإسلام بعد انصرامه وانبتاته وقطع غيل الإشراك بعد انتصابه وثباته وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صياصيهم نأخذ بأقدامهم ونواصيهم.

وكانت قلعة شنترين – أدام الله أمر أمير المسلمين – من أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقل على المسلمين فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه وهديك الذي اكتفيناه نخضد شوكتها وننحت أثلتها ونتناولها عللا بعد نهل ونطاولها عجلاً في مهل نخرف الحين بعد الحين سراة رجالها ونتطرف المرة بعد المرة حماة

أبطالها ونخوض غمار كفاحهم وبحار صفاحهم إلى بسط أشباحهم وقبض أرواحهم ونهدي للقنا وصدورها رؤوسهم وإلى لظى وسعيرها نفوسهم وننقلهم من الشفار اليمانية إلى النار الحامية ونرفع بالجد والتشمير حجاب كيدهم الغامض ونضعضع باستخارة القديم القدير هضاب أيدهم الهائض ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع المنيفة المناصب على البقاع قد استشرى داؤها وأعيا دواؤها استخرنا الله تعالى على صمدها وضرعنا إليه في تسهيل قصدها وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا وإن كانت في صيانة ديانته مبذولة وعلى المكروه والمحبوب في ذاته محمولة فقصدنا إليها وهجمنا هجوم الردى عليها في وقت انسدت فيه أبواب السبل وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل والدهر قد كشر عن أنيابه العصل وقام من الوحول والسيول على أثبت رجل فنزلنا بساحة القوم فساء صباحهم ذلك اليوم فلم نزل نصاولهم مصاولة المحتسب المؤتجر ونطاولهم مطاولة المرتقب لأمر الله المنتظر ونشن الغارات على جميع الجهات فترد جيوشنا عليهم خفافاً وتصدر إلينا ثقالاً فتملأ صدور الأعداء أوجالاً وأيدي الأولياء أموالاً وأمرنا بإقامة سوق سبيهم وأموالهم على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم فازدادت ريحهم بذلك ركوداً ونارهم خموداً.

ولما ضمهم لضيق ولاجه الحصار وغشيهم بتفريق أمواجه البوار وأحاط بهم البلاء واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء و لم يكن لليل بأسائهم سحر يتأمل ولا لورد ضرائهم صدر يؤمل اختاروا الدنية على المنية ورضوا بالاستسلام للعبودية وإسلام الأهل والذرية والسلامة من مدارج الكفن وموالج الجنن ولو بجريعة الذقن وكان القتل كما قدمنا قد أتى على صيد أعيانهم وصناديد فرسانهم فلم تبق إلا شرذمة قليلة وعصبة ذليلة لا تضر حياتهم موحداً ولا تسر نجاتهم ملحداً نقلناهم من يمين المنون إلى شمال الهون ومن أليم الحصار إلى لئيم الإسار وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم بعد أن قدموا من الخضوع صدقة بين يدي نجواهم ووهبنا أولاهم لأخراهم وجعلنا العفو عنهم تطريقاً لسواهم ممن يتقيل صنيعهم إذا نحن غداً بإذن الله حاصرناهم.

وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها واستولينا على أقطارها أرحب المدن أمدا للعيون وأخصبها بلدا في السنين لا يريمها الخصب ولا يتخطاها ولا يرومها الجدب ولا يتعاطاها فروعها فوق الثريا شامخة وعروقها تحت الثرى راسخة تباهي بأزهارها نجوم السما وتناجي بأسرارها أذن الجوزا مواقع القطار في سواها مغبرة مربدة وهي زاهرة ترف أنداؤها ومطالع الأنوار في حشاها مقشعرة مسودة وهي ناضرة تشف أضواؤها وكانت في الزمن الغابر أعيت على عظيم القياصر فنازلها بأكثر من القطر عدداً وحاولها بأوفر من البحر مدداً فأبت على طاعته كل الإباء واستعصت على استطاعته أشد الاستعصاء ومردت مرود مارد على الزباء فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركابها لنا عن صهوتها.

ومن رسائله الإخوانيات رسالة كتب بها إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال يخطب مودته ويستدعي من

إخائه جدته:

أنا مع عمادي الأعظم – أدام الله علوه كعزيب – طواه الجهد وآواه من تهامة وهد وماله بريحها العقيم ولا بحرها المقعد المقيم عهد فرفضت به من سرابها المغرق وشرابها المحرق في حمام فأشرف من ذلك الجحيم وضرمه لولا تنفيس الرحيم عنه بكرمه فوأل إلى ربوة من رباها وسأل جبال فاران عن مهب صباها ليلتقط من أنفاسها بوساطة نجد برداً يهديه إلى حر الوجد فحيته ببليل من نسيمها العليل فأحيته بعد التعليل.

وأنا ما قصدت فيما خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتداء وإنما سلكت سبيل الاقتداء واتبعت دليل الاهتداء وأردت أن أستنير بأضوائك وأستثير من سمائك نجوماً تهديني في غسق الظلام أو رجوماً تعديني على مسترق سمع الكلام فإن سمح عمادي بالجواب ورجعه غالبت – –.بما حصل منه لدي ووصل إلي – الحمام في سجعه والأنصار في حسانها والإعصار في نيسانها وطيئاً في وليدها وحبيبها وسعداً في خالدها وشبيبها وخرقت –.بما أعار من مراح وأثار من ارتياح – جيب مخارق طرباً و لم أدع لأبي العتاهية في المغرب وخفيفه المطرب أرباً وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد وأضربت صفحاً عن أناشيد لبيد وطالبت بلغاء العصر بالمثل المضروب في جمل مصر وقلت هذه القارة فراموها وأنصفوا وهذه الغاية فروموها أو نصفوا وإن كانت تؤمه البواهر ما انحلت في درجي ونجومه الزواهر ما حلت في برجي وإن كفي من جني ثماره لصفر وإن طرفي من سنا أقمارها لقفر وإني بضنه علي بدرة من بحره أو نفثة من سحره لبين ظنين لم أحصل من تحقيقهما على أثر ولا عين أحدهما قلت: إنه أخزى اسمي على خلده فلم يجدني في أنداده ولا بلده فقال: وما أنا وفلان وهل هو إلا من الغرب وإن كان بزعمه في الصميم من العرب وهل الغرب في الأقطار إلا كاللحق بين الأسطار والآخر ربما يقول: ما لا تقبله العقول إني لأنظر من فلان بأحد من نظر الزرقاء إلى أجل من خطر العنقاء وينشد قول أبي العلاء بن سليمان شاعر معرة النعمان:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا

وأنا أقسم بالربيع الممطر وائتلاف أوانه والبقيع المزهر واختلاف ألوانه والشباب ودولته والمضراب وصولته والمثاني إذا نسقت والقناني وما وسقت وإن أقسمت من بعضها بيمين لا أتلقى رايتها بشمال ولا يمين – أن اسمي في البلغاء والفهما كاسم العنقاء في الأسما: اسم ما وقع على مسمى ولفظ ما دل على معنى فأين أقع مما تريد وكتابي بين يدي حمدي أو عتابي بريد؟ ينفض تمائم ظنوني أو ينقض تمائم جنوني وله الرأي العالي في الجواب على خطأ كنت من ظني أو صواب إن شاء الله عز وجل.

ومن سلامي على عمادي الأعظم وإمامي أحفله وأحفده وأجزله وأوفده والسلام الأتم عليه ورحمة الله

وبركاته.

فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يكتب مثلها في باهما أبدع فيها غاية الإبداع وإن كان فيها بعض تكلف تسمى هذه الرسالة الحولية منعني من إيرادها في هذا المرسوم ما فيها من الطول.

ولأبي محمد عبد المجيد المذكور إحسان قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار شهرة الأمثال وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال.

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف - كما ذكرنا - في إيثار الغزو وقمع ملوك الروم والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس إلى أن توفي في شهور سنة 493.

ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمي أصحابه المرابطين فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس.

و لم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم وفي ذلك يقول: أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بأبن البني من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس.

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقبضتمو الأموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

وإنما عرض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة وهو كان المقصود بهذه الأبيات ثم هجاه بعد هذا صريحاً بأبيات أولها:

أدجال هذا أوان الخروج ويا شمس لوحي من المغرب
يريد ابن حمدين أن يعتفي وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرف حك أسته ليثبت دعواه في تغلب

في أمثال لهذه الأبيات وكان القاضي أبو عبد الله بن حمدين ينتسب إلى تغلب بن وائل.

و لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع – أعني فروع مذهب مالك – فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأقوال حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي – رحمه الله – المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك.

أعيان الكتاب في عهد أبي الحسن

و لم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب – أحد رجال البلاغة – وأبي بكر محمد ابن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً في جماعة يكثر ذكرهم.

وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وحق له ذلك إذ هو آخر الكتاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى.

فمما أختار له – رحمه الله – فصول من رسالة كتب بها مراجعاً لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعي فيها منه شيئاً من كلامه وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة.

وصل من السيد المسترق والمالك المستحق – وصل الله إنعامه لديه كما قصر الفضل عليه – كتابه البليغ – واستدراجه المريغ فلولا أن يصلد زند اقتداحه ويرقد طرف افتتاحه وتنقبض يد انبساطه وتغبن صفقة اغتباطه للزمت معه مركز قدري وصنت سريرة صدري لكنه بنفثات سحره يسمع الصم ويستنزل العصم ويقتاد الصعب فيصحب ويستدر الصخور فتحلب.

ولما فجأني ابتداؤه وقرع سمعي نداؤه فرغت إلى الفكر وخفق القلب بين الأمن والحذر فطاردت من الفقر أوابد قفر وشوارد عفر تغبر في وجه سائقها ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقها فعلمت أنها الإهابة والمهابة والإصابة والاسترابة حتى أيأستني الخواطر وأخلفتني المواطر إلا زبرجاً يعقب جواداً وبهرجاً لا يحتمل انتقاداً وأنى لمثلي والقريحة مرجاة والبضاعة مزجاة ببراعة الخطاب وبزاعة الكتاب؟ ولولا دروس معالم البيان واستيلاء العفاء على هذا الشان لما فاز لمثلي فيه قدح ولا تحصل لي في سوقه ربح لكنه جو خال ومضمار جهال وهي حكمة الله في الخلق وقسمته للرزق وأنا – أعزك الله – أربأ بقدر الذخيرة عن هذه النتف الأخيرة وأرى أنها قد بلغت مداها واستوفت حلاها وأنا أخشى القدح في اختيارك والإخلال بمختارك وعلى ذلك فوالله ما من عادتي أن اثبت ما أكتب في رسم ينقل ولا في وضع المراتب عندنا مخاطب يتحفز له ويحتفل وإنما هو عفو فكر ويسير ذكر.

وعذراً – أعزك الله – فإني خططت ما خططته والنوم مغازل والقر منازل والريح تلعب بالسراج وتصول عليه صولة الحجاج فطوراً تسدده سناناً وتارة تحركه لساناً وآونة تطويه حبابة وأخرى تنشره ذؤابة وتقيمه إبرة لهب وتعطفه برة ذهب أو حمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات وتسلطه على سليطه وتزيله عن خليطه وتخلعه نجماً وتمده رجماً وتسل روحه من ذباله وتعيده إلى حاله وربما نصبته أذن جواد ومسخته حدق جراد ومشقته حروفاً برق بكف ودق ولثمت بسناه قنديله وألقت على أعطافه منديله فلا حظ منه للعين ولا هداية في الطرس لليدين والليل زنجي الأديم تبري النجوم قد جللنا ساجه وأغرقتنا أمواجه فلا مجال للحظ ولا تعارف إلا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت أو خضبت به الشيبة لما نصلت والكلب قد صافح خيشومه ذنبه وأنكر البيت وطنبه والتوى التواء الحباب واستدار استدارة الحباب وجلده الجليد وصعد أنفاسه الصعيد فحماه مباح ولا هرير ولا نباح والنار كالرحيق أو كالصديق كلاهما عنقاء مغرب أو نجم مغرب استوى الفصل ولك في الإغضاء الفضل والسلام.

ولأبي عبد الله هذا ديوان رسائل يدون بأيدي أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالاً يحتذونه ونصبوه إماماً يقتفونه منعني من إيراد ما أختار له من ذلك خوف الخروج إلى التطويل الممل والإكثار المخل.

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة

لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير – لعنه الله – هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة عظيمة فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها أحسن فيها ما شاء منعني من إيرادها ما فيها من الطول وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض افحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة فمن فصولها قوله: أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة إلام يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقاباً وأن نعيدكم إلى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم.

في أمثال لهذا القول فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال: لأبي عبد الله أخيه كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة إلى أن استشهد في داره – رحمه الله – أول الفتنة الكائنة على المرابطين.

اختلال أحوال المرابطين

واختلت حال أمير المسلمين – رحمه الله – بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه!.

واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يرفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس.

محمد بن تومرت وبداية أمر الموحدين

ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدي وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس

ولما كانت سنة 515 قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر. ومحمد هذا رجل من أهل سوس مولده بها بضيعة منها تعرف بإيجلي أن وارغن – وهو من قبيلة تسمى هرغة – من قوم يعرفون بأيسرغينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه وكان قد رحل إلى المشرق في شهور سنة 501 في طلب العلم وانتهى إلى بغداد ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده فالله أعلم.

وحكي أنه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال: الغزالي حين بلغه ذلك ليذهبن عن قليل مكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه.

وكر راجعاً إلى الأسكندرية فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه وجرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضت إلى أن نفاه متولي الإسكندرية عن البلاد فركب البحر فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن ألقاه أهل السفينة في البحر فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة لم يصبه شيء فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر وعظم في صدورهم و لم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية فأظهر بها تدريس العلم والوعظ واجتمع عليه الناس ومالت إليه القلوب فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته فخرج منها متوجهاً إلى المغرب فنزل بضيعة يقال لها ملالة على فرسخ من بجاية وبها لقيه عبد المؤمن بن علي وهو إذ ذاك متوجه إلى المشرق في طلب العلم فلما رآه محمد بن تومرت عرفه بالعلامات التي كانت عنده وكان ابن تومرت هذا أوحد عصره في علم خط الرمل مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء بني العباس أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدث به نفسه.

وبلغني من طرق صحاح أنه لما نزل ملالة – الضيعة التي تقدم ذكرها – سمع وهو يقول: ملالة! ملالة! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولا مان فكان – كما ذكرنا – إذا كررها يقول: ليست هي!.

وأقام بهذه الضيعة أشهراً وبها مسجد يعرف به وهو باق إلى اليوم لا أدري أبني على عهده أو بعده. فاستدعى عبد المؤمن وخلا به وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه فتسمى له وانتسب وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل في طلب العلم إلى المشرق فقال: له ابن تومرت أو خير من ذلك قال: وما هو قال:

شرف الدنيا والآخرة تصحبني وتعينني على ما أنا بصدده من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراده.

وأقام ابن تومرت بملالة أشهراً ثم رحل عنها وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقي وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن وخرج متوجهاً إلى المغرب.

وقيل إنه إنما لقي عبد المؤمن بموضع يعرف بفترارة من بلاد متيجة – وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية المذكورة – فسأله ابن تومرت صحبته والقراءة عليه وإعانته بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم.

وبهذه القرية له حكاية طريفة وذلك أنه رأى وهو بها في المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين علي بن يوسف في صحفة واحدة قال: ثم زاد أكلي على أكله وأحسست من نفسي شرها إلى الطعام و لم يزل ذلك بي إلى أن اختطفت الصحفة من بين يديه وانفردت بها فلما انتبه قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه – اسمه عبد المنعم بن عشير يكنى أبا محمد كان يقرأ عليه – فلما أتى على آخرها قال: يا بني يا عبد المؤمن هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك إنما هي لرجل ثائر يثور على أمير المسلمين فيشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها!.

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التي تثبت في باب الكلم الموافقة للقدر أن رجلاً من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصنهاجي صاحب بجاية والقلعة وجد عليه الملك العزيز فاشتد خوفه فهرب منه إلى هذه الضيعة التي كان فيها عبد المؤمن فكان معه بها يعلم الصبيان وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال ثم اتفق أن صاحبه رضي عنه فبلغه ذلك فسار إلى بجاية فدخل عليه فسأله أين كنت في هذه الأيام؟ فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يحيونه بالكسر! فضحك وقال: الضيعة لك وما والاها! وأمر له بمال ومركب وثياب فخرج الرجل إلى الضيعة في خيل ورجال معه وخرج إليه أهلها يتلقونه فأتى الصبيان عبد المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد فقالوا له أتعرف من هذا الذي اهتزت له هذه الأرض؟ قال: لا! قالوا هو فلان صاحبك الذي كان يعلمنا معك! فقال: إن كانت حالة فلان انتهت إلى هذا فلا بد أن أكون أنا غداً أمير المؤمنين فكان الأمر كما قال ووافقت كلمته القدر.

وخرج ابن تومرت – كما ذكرنا – متوجهاً إلى المغرب حتى أتى مدينة تلمسان فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد جارياً على عادته وكان قد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة فلا يراه أحد إلا هابه وعظم أمره وكان شديد الصمت كثير الانقباض إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة.

أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العباد أنه خرج عليهم ذات ليلة بعد ما صلى العتمة فنظر إليهم وقال: أين فلان؟ – لرجل كان يصحبهم – فأخبروه أنه مسجون فقام

من وقته ودعا برجل منهم يمشي بين يديه حتى أتى باب المدينة فدق على البواب دقاً عنيفاً واستفتح فأجابه البواب إلى الفتح بسرعة من غير تلكؤ ولا إبطاء ولو استفتح أمير البلد لتعذر ذلك عليه ودخل حتى أتى السجن فابتدر إليه السجانون والحرس يتمسحون به ونادى: يا فلان! باسم صاحبهم فأجابه: فقال: اخرج! فخرج والسجانون ينظرون إليه كأنما أفرغ عليهم الماء الحار وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد وكانت هذه عادته في كل ما يريد لا يتعذر عليه مراد ولا يمتنع عليه مطلوب قد سخرت له الرعية وذللت له الجبابرة.

و لم يزل مقيماً بتلمسان – وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور – إلى أن فصل عنها بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها فخرج قاصداً مدينة فاس فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الاشعرية وكان أهل المغرب – على ما ذكرنا – ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم فجرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور لأنه وجد جواً خالياً وألقى قوماً صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام فأمره والي البلد بالخروج: فخرج متوجها إلى مراكش.

ابن تومرت في حضرة ابن تاشفين

وكتب بخبره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فلما دخلها أحضر بين يديه وجمع له الفقهاء للمناظرة فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول: حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان وكانت لديه فنون من العلم رأيت له كتاباً سماه قراظة الذهب في ذكر لئام العرب ضمنه لئام العرب في الجاهلية والإسلام وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيته في خزانة بني عبد المؤمن.

ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطليموس في الأحكام وكتاب المجسطي في علم الهيئة وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي.

ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمى كلامه أحد إلا مال إليه وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير! فتوقف أمير المسلمين في قتله وأبى ذلك على دينه – وكان

رجلاً صالحاً مجاب الدعوة – يعد في قوام الليل وصوام النهار إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأً له ووزراً على ما تقدم.

فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت أشار عليه بسجنه حتى يموت فقال: أمير المسلمين علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه و لم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء!.

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سوس فنزل بموضع منها يعرف بتينمل.

بدء دعوة الموحدين

من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير من غير أن يظهر إمرة ولا طلبة ملك وألف لهم عقيدة بلسانهم وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشربت قلوبهم محبته وأجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ونهاهم عن سفك الدماء و لم يأذن لهم فيها وأقاموا على ذلك مدة وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدي ويشوق إليه وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادعى ذلك لنفسه وقال: أنا محمد بن عبد الله ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله.

ثم صنف لهم تصانيف في العلم منها كتاب سماه أعز ما يطلب وعقائد في أصول الدين وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء.

طبقات الموحدين

وصنف أصحابه طبقات فجعل منهم العشرة وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته – وهم المسمون بالجماعة – وجعل منهم الخمسين – وهم الطبقة الثانية – وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة بل هم من قبائل شتى وكان يسميهم المؤمنين ويقول لهم ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم

العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله" وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع أكثرها وكان يقول: لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة.

فزادت فتنة القوم به وأظهروا له شدة الطاعة.

وقد نظم هذا الذي وصفناه من قول ابن تومرت في تخليد هذا الأمر رجل من أهل الجزائر – مدينة من أعمال بجاية – وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو بتينمل فقام على قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين وأنشد قصيدة أولها:

سلام على قبر الإمام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه ... وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ... ويملك عرباً من مغير ومنجد

فمن وصفه أقنى وأجلى وأنه ... علاماته خمس تبين لمهتدي
زمان وإسم والمكان ونسبة ... وفعل له في عصمة وتأيد
ويلبث سبعاً أو فتسعاً يعيشها ... كذا جاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعاً مثل قول نبينا ... فذلكم المهدي بالله يهتدي
وتتبعه للنصر طائفة الهدى ... فأكرم بهم إخوان ذي الصدق أحمد
هي الثلة المذكور في الذكر أمرها ... وطائفة المهدي بالحق تهتدي
ويقدمها المنصور والناصر الذي ... له النصر حزب إذ يروح ويغتدي
هو المنتقي من قيس عيلان مفخراً ... ومن مرة أهل الجلال الموطد
خليفة مهدي الإله وسيفه ... ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدي
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرة التي ... أبادت من الإسلام كل مشيد

فيغزون أعراب الجزيرة عنوة ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمة ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغدون الدجال يغزونه ضحاً يذيقونه حد الحسام المهند
ويقتله في باب لد وتنجلي شكوك أمالت قلب من لم يوحد
وينزل عيسى فيهم وأميرهم إمام فيدعوهم لمحراب مسجد
يصلي بهم ذاك الأمير صلاتهم بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجوههم ويخبرهم حقاً بعز مجدد
وما إن يزال الأمر فيه وفيهم إلى آخر الدهر الطويل المسرمد
فأبلغ أمير المؤمنين تحية على النأي مني والوداد المؤكد
عليه سلام الله ماذر شارق وما صدر الوراد عن ورد مورد

وقد قيل: إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد و لم ينشدها بنفسه منعته عن ذلك الكبرة وبعد الشقة وإنما أرسل بها فأنشدت على قبر الإمام وكان عمله إياها وعبد المؤمن حي فالله أعلم وهي طويلة هذا ما اخترت له منها و لم أوردها في هذا الموضع لأنها من مختار الشعر ولكن لموافقتها الفصل الذي قبلها.

و لم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك الحد إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم وهذا أمر جبلت عليه فطرهم واقتضاه ميل إقليمهم.

حكى أبو عبيد البكري الأندلسي ثم القرطبي في كتابه الموسوم ب المسالك والممالك عن رجال قال: أهديت إلى الإسكندر فرس ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها لم يكن فيها عيب إلا أنها لم يسمع لها صهيل قط فلما حل الإسكندر في تطوافه بجبال درن – وهي بلاد المصامدة – وشربت تلك الفرس من مياهها صهلت صهلة اصطكت منها الجبال فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك فكتب إليه أنها بلاد شر وقسوة فعجل الخروج منها!.

فهذه حال بلاد القوم وأما خفه سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب.

الحرب بين المرابطين والموحدين

ولما كانت سنة 517 جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل مع من انضاف إليهم من أهل سوس وقال: لهم اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى أماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم مالهم وعليهم ما عليكم وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم.
وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة بجيش ضخم من سراة لمتونة أميرهم الزبير بن علي بن يوسف ابن تاشفين فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ رد وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ويذكره الله في سفك الدماء وإثاره الفتنة فلم يردع ذلك عبد المؤمن بل زاده طمعاً في المرابطين وحقق عنده ضعفهم فالتقت الفئتان فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه فلما جاء الخبر لابن تومرت قال: أليس قد نجا عبد المؤمن قالوا نعم قال: لم يفقد أحد.
ولما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ويقرر عندهم أن قتلاءهم شهداء لأنهم ذابون عن دين الله مظهرون للسنة فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم وحرصاً على لقاء عدوهم ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش ويقطعون عنها مواد المعايش وموصول المرافق ويقتلون ويسبون ولا يبقون على أحد ممن قدروا عليه وكثر الداخلون في طاعتهم والمنحاشون إليهم وابن تومرت في ذلك كله يكثر التزهد والتقلل ويظهر التشبه بالصالحين والتشدد في إقامة الحدود جارياً في ذلك على السنة الأولى.
أخبرني من رآه – ممن أثق إليه – يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل متشبها في ذلك بالصحابة.
ولقد أخبرني بعض من شهده وقد أتى برجل سكران فأمر بحدة فقال: رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها! فأعرض عنه ثم أعاد عليه الحديث فأعرض عنه فلما كان في الثالثة قال: له أرأيت لو قال: لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت ثم كشف على الأمر فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيماً إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر.

و لم يزل كذلك وأحواله صالحة وأصحابه ظاهرون وأحوال المرابطين المذكورين تختل وانتقاض دولتهم يتزيد إلى أن توفي ابن تومرت المذكور في شهور سنة 524 بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه.

ذكر ولاية عبد المؤمن

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة واتفقت على تقديمه الجماعة وكان الذين سعوا في تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة وهم من أهل الجماعة عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزناج وعمر ابن ومزال الذي كان اسمه قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر يعرفونه بعمر إينتي وعبد الله بن سليمان من أهل تينمل من قبيلة يقال لها مسكالة ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي الموحدين.

وصية ابن تومرت

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة وأهل خمسين وهم – كما ذكرنا – من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين – رضوان الله عليهم – ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر وتصميمه على الحق في أشباه لهذه الفصول ثم قال: فانقرضت هذه العصابة – نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها – وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران والعالم متجاهلاً مداهناً فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم في أشباه لهذا القول إلى هاجراً:

ثم إن الله – سبحانه وله الحمد – من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده وقيض لكم من ألفاكم ضلالاً لا تهتدون وعمياً لا تبصرون لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لساني عن النصق بها وأربأ بلفظي عن ذكرها فهداكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم وما ربك بظلام للعبيد فجددوا لله – سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات

الآراء وكونوا يداً واحدة على عدوكم فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فخطفتكم الخاصة وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه في ذلك كله ثبتاً في دينه متبصراً في أمره وإني لأرجو ألا يخلف الظن فيه وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده.

فبايع القوم عبد المؤمن ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً فهذا سبب إمرة عبد المؤمن – رحمه الله – ثم توفي ابن تومرت بعد عهده بيسير واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن.

فصل في حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي أمه حرة كومية أيضاً من قوم يقال لها بنو مجبر مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا وقيل إنه كان يقول: إذا ذكر كومية لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر وبهذا استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت قسيمه رضي الله عنه في النسب الكريم.

كان مولده في آخر سنة 487 في أيام يوسف بن تاشفين وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ومدة ولايته من حين استوسق له الأمر بموت علي بن يوسف أمير المسلمين في سنة 37 على التحقيق إحدى وعشرين سنة إلى أن توفي في التاريخ المذكور.

وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة شديد سواد الشعر معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق وكان محبباً إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه بديهة وبلغني أن ابن تومرت كان ينشد كلما رآه:

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة ... والصدر منشرح والوجه منبسط

أولاده

وكان له من الولد ستة عشر ذكراً وهم محمد وهو أكبر ولده وولي عهده وهو الذي خلع وعلي وعمر ويوسف وعثمان وسليمان ويحيى وإسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى وموسى وإبراهيم ويعقوب.

وزراؤه

وزر له في أول الأمر أبو حفص عمر أزناج إلى ان استقر الأمر واستقل عبد المؤمن فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة وربأ بقدره عنها إذ كان عندهم فوق ذلك واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية فجمع بين الوزارة والكتابة فهو معدود في الكتاب والوزراء فلم يزل عبد المؤمن بجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلاً من نبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمي وسيأتي ذكره في كتابه واستمرت وزارة أبي جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن في شهور سنة 553 واستصفى أمواله ثم وزر له عبد السلام الكومي وكان يدعى المقرب لشدة تقريب عبد المؤمن إياه فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً في شهور سنة 557 ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفي عبد المؤمن.

كتابه

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور في الوزراء كان قبل اتصاله بعبد المؤرن وفي الدولة اللمتونية يكتب لعلي بن يوسف في آخر أيامه وكتب عن تاشفين بن علي بن يوسف فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند وكان محسناً للرمي وكان في الجند الذين خرجوا إلى سوس لقتال ثائر قام هناك كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر إينتي المتقدم الذكر في أهل الجماعة فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقتل هو وانفضت تلك الجموع طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة إلى الموحدين الذين بمراكش فدل على أبي جعفر هذا ونبه على مكانه فاستدعاه وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال أجاد في أكثرها ما شاء منعني من رسمها في هذا الموضع ما فيها من الطول فلما بلغت الرسالة عبد المؤمن استحسنها واستدعى أبا جعفر هذا واستكتبه وزاده إلى الكتابة الوزارة لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله فلم يزل وزيره كما ذكرنا إلى أن قتله في التاريخ الذي ذكر وكان سبب قتله – فيما بلغني – أنه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية وأخوها يحيى فارس للرابطين المشهور عندهم يعرف أيضاً بيحيى بن الصحراوية فحظي يحيى هذا عند الموحدين وقودوه على من وحد من لمتونة و لم يزل وجيهاً عندهم مكرماً لديهم – وكان خليقاً بذلك – إلى أن نقلت عنه إلى

عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها أحنقته عليه فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه وربما هم بالقبض على يحيى هذا فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين من نصح أميره وتحذير صهره فقال: لأمرأته أخت يحيى المذكور قولي لأخيك يتحفظ وإذا دعوناه غدا فليعتل ويظهر المرض وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميرقة فليفعل فأخبرته أخته بذلك فتمارض وأظهر أن ألماً به فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته فأسر إلى بعضهم – ممن كان يثق به – ما بلغه عن الوزير تخرج ذلك الرجل الذي أسر إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الأكبرفي قتل أبي جعفر المذكور وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه فكان في سجنه إلى أن مات!.
ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا أبو القاسم عبد الرحمن القالمي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم وكتب له معه أبو محمد عياش ابن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة.

قضاته

أبو محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقي لم يزل قاضياً له إلى أن توفي عبد المؤمن وصدراً من خلافة أبي يعقوب.

رجع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محباً لهم محسناً إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم وقسم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه.
وكان عبد المؤمن في نفسه سري الهمة نزيه النفس شديد الملوكية كأنه كان ورثها كابراً عن كابر لا يرضى إلا بمعالي الأمور.

أخبرني الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر الوزير عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر قال: دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره وتفتحت أزهاره وتجاوبت على أغصانها أطياره وتكامل من كل جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسلمت وجلست وجعلت أنظر يمنة وشأمة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال: لي يا أبا جعفر أراك كثير النظر إلى هذا البستان! قلت: يطيل الله بقاء أمير المؤمنين والله إن هذا لمنظر حسن! فقال: يا أبا جعفر المنظر

الحسن هذا؟ قلت: نعم فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخذي أسلحتهم وجلس في مكان مطل وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة إثر كتيبة لا تمر كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلي وقال: يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثمارك وأشجارك.

و لم يزل عبد المؤمن – بعد وفاة ابن تومرت – يطوي الممالك مملكة مملكة ويدوخ البلاد إلى أن ذلت له البلاد وأطاعته العباد.

نهاية المرابطين وآخر من ولي الأمر منهم

وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التي يملكها المرابطون مدينة مراكش دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه في شهور سنة 537 وكان قد عهد في حياته إلى ابنه تاشفين فعاقته الفتنة عن تمام أمره و لم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشيء من الأمور.

وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد فقصد مدينة وهران وهي على ثلاث مراحل من تلمسان فحاصره الموحدون بها فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء عليه سلاحه فاقتحم البحر حتى هلك ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه فالله أعلم بصحة ذلك. فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل كما ذكرنا بمدينة وهران ثلاثة أعوام إلا شهرين وكان قتله سنة 540 وكان طول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال تنبو به البلاد وتتنكر له الرعية فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذكر.

وبعد دخول عبد المؤمن – رحمه الله – مراكش طلب قبر أمير المسلمين وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين.

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه فلم يذكروا على منبر من منابرها إلى الآن خلا أعوام يسيرة بأفريقية كان قد ملكها يحيى بن غانية الثائر من جزيرة ميرقة على ما سيأتي بيانه.

وكانت مدة المرابطين – من حين نزولهم رحبة مراكش إلى أن انقرض ملكهم جملة واحدة بموت أمير المسلمين وابنه – نحواً من ست وسبعين سنة.

تغلب عبد المؤمن على بجاية وقلعة بني حماد

ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون على ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جموعاً عظيمة وخرج من مراكش يقصد مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي – وكان يملك بجاية وأعمالها – إلى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتمونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا في شهور سنة 540 فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب في البحر حتى أتى مدينة بونة وهي أول حد بلاد إفريقية ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينة المغرب فأرسل إليه عبد المؤمن – رحمه الله – بالجيوش فاستنزل وأتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في نفسه وأهله.

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث أمرهم.

وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر وجدهم الأكبر حماد من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم أعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمراً ودولتهم قائمة وأمرهم نافذاً لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته أبو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي تقدم!.

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعاً إلى مراكش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاهاً ضخماً وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها.

بلغني من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوماً فذكروا تعذر الصرف فقال: يحيى أما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة وعبيدي في كل يوم يشكون إلي ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال: لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا إن شاء الله عز وجل!.

وأقام عبد المؤمن – رحمه الله – بمراكش مرتباً للأمور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور وإعداد سلاح واستنزال مستعصٍ وتأمين سبل وإحسان إلى رعية وما هذا سبيله.

فصل: أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة.

ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين اخرجوا من كان عندهم من الولاة واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية فأما بلاد أفراغة فاستولى عليها ملك ارغن – لعنه الله – وملك مع ذلك سرقسطة أعادها الله للمسلمين وكثيراً من أعمال تلك الجهات.

واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم بلغني عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس إذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض! هذه مائة فارس! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردهم عن البلاد وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي – رحمه الله – ونضر وجهه وشكر له سعيه لا أتحقق تاريخ وفاته.

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد المعروف عندهم بابن مردنيش كان محمد هذا خادماً لابن عياض يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له إلى من تسند أمورنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد فأشاروا به عليه فقال: إنه لا يصلح لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة فإن كان ولا بد فقدموا عليكم هذا – وأشار إلى محمد بن سعد – فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء ولعل الله أن ينفع به المسلمين!.

فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات في شهور سنة 568.

وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم فندبوا إليها القائد أبا عبد الله بن ميمون و لم يكن منهم إنما هو من أهل مدينة دانية فأبى عليهم وقال: إنما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبد الله بن محمد يعرف بابن الرميمي فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم في خير يطول ذكره.

وملك جيان وأعمالها إلى حصن شقورة وما والى تلك الثغور رجل اسمه عبد الله لا أعرف اسم أبيه هو معروف عندهم بابن همشك وربما ملك عبد الله هذا قرطبة أياماً يسيرة.

وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وأشبيلية.

فهذه جملة أحوال الأندلس في آخر دعوة المرابطين وفي ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربت عن ذكرها خوفاً من الإطالة لأنها نكرة والتعريف بها مخرج إلى الطول.

وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورءوس ضلالات فاستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قسي كان في أول أمره يدعي الولاية وكان صاحب حيل ورب شعبذة وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ثم ادعى الهداية بلغني ذلك عنه من طرق صحاح ثم لم يستقم له شيء مما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بحصن مارتلة – وقد تقدم اسم هذا الحصن في أخبار الدولة العبادية – فأسلمه – كما ذكرنا – أصحابه واختلفوا عليه ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد فعبروا به إلى العدوة فأتوا به عبد المؤمن – رحمه الله – فقال: له بلغني أنك ادعيت الهداية فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجران كاذب وصادق فأنا كنت الفجر الكاذب فضحك عبد المؤمن وعفا عنه و لم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ولابن قسي هذا أخبار قبيحة مضمونها الجراءة على الله سبحانه والتهاون بأمر الولاية منعني من ذكرها صرف العناية إلى ما هو أهم منها.

عبور الموحدين إلى الأندلس

ولما انتشرت دعوة المصامدة كما ذكرنا بالمغرب الأقصى تشوف إليهم أعيان مغرب الأندلس فجعلوا يفدون في كل يوم عليهم ويتنافسون في الهجرة إليهم فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الأندلس كالجزيرة الخضراء ورندة ثم أشبيلية وقرطبة وأغرناطة وكان الذي فتح هذه البلاد الشيخ أبو حفص عمر إينتي المتقدم الذكر في أهل الجماعة واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس.

فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد جزيرة الأندلس فسار حتى نزل مدينة سبتة فعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتني به قصوراً عظيمة وبنى هناك مدينة هي باقية إلى اليوم ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة كأهل مالقة وأغرناطة ورندة وقرطبة وأشبيلية وما والى هذه البلاد وانضم إليها وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداءً و لم يكن يستدعيهم قبل ذلك إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم.

محمد بن حبوس الفاسي الشاعر

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون فدخلوا فكان أول من أنشد أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير إلا أن محمد بن هانئ كان أجود منه طبعاً وأحلى مهيعاً فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد أولها:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا   وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً   وجد الهداية صورة فتشكلا

لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين.

ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة وكان حظياً عنده نال في أيامه ثروة وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات فهرب إلى الأندلس و لم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد إلى بلد حتى انتقلت الدولة المرابطية.

قرأ علي ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية فقال: دخلت مدينة شلب من بلاد الأندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً فسألت عمن يقصد إليه فيها فدلني بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاءة ودواة فأعطانيهما فكتبت أبياتاً أمتدحه بها وقصدت داره فإذا هو في الدهليز فسلمت عليه فرحب بي ورد علي أحست رد وتلقاني أحسن لقاء وقال: أحسبك غريباً! قلت: نعم فقال: لي من أي طبقات الناس أنت؟ فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء ثم أنشدته الأبيات التي قلت: فوقعت منه أحسن موقع فأدخلني إلى مترله وقدم إلي الطعام وجعل يحدثني فما رأيت أحسن محاضرة منه فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يدي

ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية فدفعها إلي وقال: هذه لك! ثم دفع إلي صرة فيها أربعون مثقالاً وقال: هذه من عندي فتعجبت من كلامه وأشكل علي جداً وسألته من أين كانت هذه لي؟ فقال: لي سأحدثك إني أوقفت أرضاً من جملة مالي للشعراء غلتها في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد لتوالي الفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك وأما هذه فمن حر مالي يعني الأربعين دينار فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً.

الأصم المراوني الشاعر ابن الطليق

وأنشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المرواني كان شريفا من جهة أمه:

ما للعدا جنة أوقى من الهرب

فقال عبد المؤمن رافعاً صوته إلى أين إلى أين؟ فقال الشاعر:

أين المفر وخيل الله في الطلب؟ !

وأين يذهب من في رأس شاهقة | وقد رمته سماء الله بالشهب؟!

حدث عن الروم في أقطار أندلس | والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال: عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء فسمى نفسه خليفة كما ترى.

وجد هذا الشاعر هو الشريف الطليق طليق النعامة وإنما سمي بذلك لأنه كان محبوساً في مطبق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور القائم بدعوة هشام المؤيد أقام في ذلك المحبس سنين فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش فرفعت إلى ابن أبي عامر فأخذها في جملة رقاع ودخل إلى داره فجاءت نعامة كانت هناك فجعل يلقي إليها الرقاع فتبتلع شيئاً ونلقي شيئاً فألقى إليها رفعة هذا الشريف في جملة الرقاع وهو لم يقرأها فأخذتها ثم دارت وألقتها في حجره فرمى بها إليها ثانية فدارت القصر كله ثم جاءت وألقتها في حجره فرمى بها إليها ثالثة وفعلت ذلك مراراً فتعجب من ذلك وقرأ الرقعة وأمر بإطلاقه فسمي بذلك طليق النعامة!.

وأنشد في ذلك اليوم رجل من أهل أشبيلية يعرف بابن سيد ويلقب باللص:

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل | وانظر إلى الجبل الراسي على جبل

أنى أستقر به أنى استقل به | أنى رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبد المؤمن لقد ثقلتنا يا رجل! فأمر به فاجلس وهذه القصيدة من خيار ما مدح به لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة.

الرصافي الرفاء الشاعر

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي كان مستوطناً مدينة مالقة:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلاً لسار ولم تشبب لمقرور
فيضية القدح من نور النبوة أو ... نور الهداية تجلو ظلمة الزور
ما زال يقضمها التقوى بموقدها ... صوام هاجرة قوام ديجور
حتجى أضاءت من الإيمان من قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور
نور طوى الله زند الكون منه على ... سقط إلى زمن المهدي مذخور
وآية كأيات الشمس بين يدي ... غزو على الملك القيسي منذور
يا دار دار أمير المؤمنين بسفح الط ... ود طود الهدى بوركت في الدور
ذات العمادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قدس وتطهير

ما كان بانيك بآلواني الكرامة عن ... قصر على مجمع البحرين مقصور
مواطئ من نبي طالما وصلت ... فيها الخطا بين تسبيح وتكبير
حيث استقلت به نعلاه بوركتا ... فطيبت كل موطوء ومعبور
وحيث قامت قناة الدين ترفل في ... لواء نصر على البرين منشور
في كف منشمر البردين ذي ورع ... على التقى وصفاء النفس مفطور
يلقاك في حال غيب من سريرته ... بعالم القدس مشهود ومحضور
تسنم الفلك من سخط المرار وقد ... تؤدين يا خير أفلاك العلا سيري
فسرن يحملن أمر الله من ملك ... بالله مستنصر في الله منصور
يومي له بسجود كل محركة ... منها ويوليه حمداً كل تصرير
لما تسابقن في بحر الزقاق به ... تركن شطيه في شك وتحيير
أهز من موجه أثناء مسرور؟ ... أم خاض من لجه أحشاء مذعور؟

كأنه سالك منه على وشل في الأرض من مهج الأسياف مقطور
من السيوف التي ذابت لسطوته وقد رمى نار هيجاها بتسعير
ذو المنشآت الجواري في أجرتها شكل الغدائر في سدل وتضفير
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها ما في سجاياه من لين وتعطير
من كل عذراء حبلى في ترائبها ردعان من عنبر ورد وكافور
نجالها بين أيد من مجاذفها يغرقن في مثل ماء الورد من جور
وربما خاضت التيار طائرة بمثل أجنحة الفتخ الكواسير
كأنما عبرت تختال عائمة في زاخر من يدي يمناه معصور
حتى رمت جبل الفتحين من كثب بساطع من سناه غير مبهور
لله :ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس له من الغيم جيب غير مزرور
معبراً بذراه عن ذرى ملك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمسي النجوم على إكليل مفرقه في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت منه مقاحم أعواد الدهارير
محنك حلب الأيام أشطرها وساقها سوق حادي العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر في عجيب أمريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والإطراق مفتكراً بادي السكينة مغبر الأسارير
كأنه مكمد مما تعبده خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الأرض راجفة أن يطمئن غداً من كل محذور
كفاه فضلاً أن انتابت مواطئه نعلا مليك كريم السعي مشكور
مستنشياً بهما ريح الشفاعة من ثرى إمام بأقصى الغرب مقبور
ما انفك آمل أمر منه بين يدي يوم القيامة محتوم ومقدور
حتى تصدى من الدنيا على رمق يستنجز الوعد قبل النفخ في الصور

مستقبل الجانب الغربي مرتقباً كأنه باهت في جو اسمير
لبارق من حسام سله قدر بالغرب من أفق البيض المشاهير
إذا تألق قيسياً أهاب به إلى شفى من مضاع الدين موتور
ملك أتى عظماً فوق الزمان فما يمر فيه بشيء غير محقور
ما عن في الدين والدنيا له أرب إلا تأتي له من غير تعذير
ولا رمى من أمانيه إلى غرض إلا هدى سهمه نجح المقادير

حتى كأن له في كل آونة سلطان رق على الدنيا وتسخير
مميز الجيش ملتفا مواكبه من كل مثلول عرش الملك مقهور
من الأولى خضعوا قسراً له وعنوا لأمره بين منهي ومأمور
من بعد ما عاندوا أمر فما تركوا إذ أمكن العفو ميسوراً لمعسور
بقية الحرب فاتوها وما بهم في الضرب والطعن سيماء لتقصير
لا ينكر القوم مما في أكفهم بيض مفاليل أو سمر مكاسير
إذا صدعت بأمر الله مجتهداً ضربت وحدك أعناق الجماهير
لا يذهبن لتقليل أخو سبب من الأمور ولا يركن لتكثير
فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً والأرض قد غرقت من فور تنور
وإنما هو سيف الله قلده أقوى الهداة يداً في دفع محذور
فإن يكن بيد المهدي قائمة فموضع الحد منه حد مشهور
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت فتاه يوشع قماع الجبابير

وكان الرصافي يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة وهو من مجيدي شعراء عصره لا سيما في المقاطيع كالخمسة الأبيات فما دونها وقد رويت شعره عن جماعة ممن لقيه وقد رأيت أن أورد منه هاهنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه به فمن ذلك قوله يصف نهر أشبيلية الأعظم وهو نهر لا نظير له في الدنيا:

ومهدل الشطين تحسب أنه متسايل من درة لصفائه
فاءت عليه مع الهجيرة سرحة صدئت لفيئتها صفيحة مائه

فتراه أزرق في غلالة سمرة		كالدارع استلقى بظل لوائه

وله وقد اجتمع مع إخوان له في بعض العشايا في بستان رجل يقال له موسى بن رزق:

ما مثل موضعك ابن رزق موضع		روض يرق وجدول يتدفع
فكأنما هو من محاجر عادة		فالحسن ينبت في ثراه وينبع
وعشية بنا أمد السرور تألفاً		والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها رمق الغبوق فقد أتى		من دون قرص الشمس ما يتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردها		فوددت يا موسى لو أنك يوشع

وله يصف عشية أيضاً في موضع هذا الرجل المتقدم ذكره:

محل ابن رزق جر فيه ذيوله		من المزن ساق يحسن الجر والسقيا
ذكرت عشياً فيك لا ذم عهده		وإن نحن لم نهتع ببهجته لقيا
ولم يتعلق بي منك عند افتراقنا		سوى عبق من مسك قينتك الدميا
وكنت أراني في الكرى وكأنني		أناول كالدينار من ذهب الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحسنه		على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف دولاباً:

وذي حنين يكاد شوقاً		يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جاراً		قال له المحل لا مساسا
يبتسم الروض حين يبكي		بأدمع ما رأين باسا
من كل جفن يسل سيفاً		صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبياً يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه يحكى بذلك الدموع:

عذيري من جذلان يبدي كآبةً		وأضلعه مما يحاوله صفر
أميلد مياس إذا قاده الصبا		إلى ملح الإدلال أيده السحر
يبل مآقي زهرتيه بريقه		ويحكي البكا عمداً كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه		وهل عصرت يوماً من النرجس الخمر؟

وقال يصف نائماً قد تحبب العرق على خده:

ومهفهف كالغصن إلا أنه | سلب التثني النوم عن أثنائه
أضحى ينام وقد تحبب خده | عرقاً فقلت: الورد رش بمائه

وللرصافي هذا افتنان في الآداب وكان رحمه الله عفيف الطعمة نزيه النفس لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته في كثير منه.

وصل الحديث عن عبد المؤمن بن علي:

وأقام عبد المؤمن بجبل الفتح مرتباً للأمور ممهداً للمملكة وأعيان البلاد يفدون عليه في كل يوم إلى أن تم له ما أراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس.

فولي مدينة أشبيلية وأعمالها ابنه يوسف وهو الذي ولي الأمور بعده على ما سيأتي بيانه وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوي الرأي والتحصيل منهم من يرجع إليه في أموره ويعول عليه فيما ينويه.

وولي قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر إينتي.

وولي غرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن يكنى أبا سعيد وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوي الصرامة منهم وكان محباً في الآداب مؤثراً لأهلها يهتز للشعر ويثيب عليه اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده.

ثم كر عبد المؤمن راجعاً إلى مراكش بعد ما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجالاً من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند.

منازل العرب الهلالية في المغرب والأندلس: وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر خرجوا إلى البلاد حين خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب فعاثوا في القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ودوخوا مملكة بني زيري بن مناد وهذا بعد موت المعز بن باديس فانتقل تميم إلى المهدية وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر!.

فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك فأقاموا على ذلك باقي أيامه وايام ابنه الملقب بالعزيز وأيام يحيى إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن – رحمه الله – فأزال ذلك من أيديهم وصيرهم جمداً له وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد.

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس وأمر أن تكتب في آخرها أبيات قالها – رحمه الله – في ذلك المعنى وهي:

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل | وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر | وشدوا على الأعداء شدة صائل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح | يفوت الصبا في شده المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنده | على الماء منسوج وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامر | وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية | عواقبها منصورة بالأوائل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي | تنجز من بعد المدى المتطاول
بها تفتح الدنيا بها تبلغ المنى | بها ينصف التحقيق من كل باطل
أهبنا بكم للخير والله حسبنا | وحسبكمو والله أعدل عادل
فما همنا إلا صلاح جميعكم | وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترف ظلالها | عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة | وللمدلج الساري صفاء المناهل

فاستجاب له منهم جمع ضخم فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها فجعل بعضهم في نواحي قرطبة وبعضهم في نواحي أشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها فهم بها باقون إلى وقتنا هذا – وهو سنة 621 – وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة.

وكان عبور عبد المؤمن – رحمه الله – إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح في سنة 538 ثم كر – كما ذكرنا – راجعاً إلى مراكش فأخبرني غير واحد ممن أرضى نقله أنه لما نزل مدينة سلا – وهي مدينة على البحر الأعظم المحيط ينصب إليها نهر عظيم يصب في البحر المذكور – عبر النهر وضربت له خيمة على الشاطئ وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم خر ساجداً ثم رفع رأسه وقد بل الدمع لحيته والتفت إلى من عنده وقال: أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا

رغيف واحد فراموا عبور هذا النهر فأتوا صاحب القارب وبذلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال: لا آخذه إلا على اثنين خاصة فقال: لهم أحدهم – وكان شاباً جلداً – خذ ثيابي معكما وأعبر أنا سباحةً! فأخذا ثيابه معهما وصعدا في القارب فجعل الشاب يسبح فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح فضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه فما بلغ البر إلا بعد جهد شديد!.

فما شك السامعون للحكاية أنه العابر سباحةً وأن الاثنين المذكورين هما: ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي.

ثم سار حتى أتى مراكش فنزلها وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور غر مخل بشيء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافته.

وأخبرني السيد حقيقةً والماجد خلقاً وخليقةً أبو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبي يعقوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين وقال لي – رحمه الله – لا أدري هما له أو لغيره:

وحكم السيف لا تعبأ بعاقبة ... وخلها سيرة تبقى على الحقب

فما تنال بغير السيف منزلة ... ولا ترد صدور الخيل بالكتب

وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن بجاية وولي عليها ابنه عبد الله – حسبما تقدم – عهد إليه أن يشن الغارات على نواحي إفريقية وأن يضيق على تونس ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها على طريقه ففعل ذلك.

غزو الموحدين لإفريقية

ثم إن عبد الله تجهز في جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم وسار حتى نزل على مدينة تونس – وهي حاضرة إفريقية بعد القيروان وكرسي مملكتها ومقر تدبيرها وإياها يستوطن والي إفريقية لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى وقتنا هذا وهو سنة 621 – فحاصرها عبد الله المذكور وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها وكان الذي يملكها في ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومي صاحب صقلية – لعنه الله – وكان عامله عليها رجل من المسلمين اسمه عبد الله يعرف بابن خراسان لم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريخ الذي سيذكر فلما طال على ابن خراسان الحصار أجمع رأيه ورأي أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ففعلوا ذلك وخرجوا بخيل ضخمة فالتقوا هم

واصحاب عبد الله فانهزم أصحاب عبد الله وقتل منهم خلق كثير ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه يخبره بذلك.

فتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين

فلما كان في آخر سنة 553 أخذ عبد المؤمن في الحركة إلى إفريقية فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب وسار حتى نزل على مدينة تونس فافتتحها عنوة وفصل عنها إلى مهدية بني عبيد وفيها الروم أصحاب ابن الدوقة وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيري بن مناد الصنهاجي ملوك القيروان فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار وهي من معاقل المغرب المنيعة لأن بنيانها في غاية الإحكام والوثاقة – بلغني أن عرض حائط سورها ممشي ستة أفراس في صف واحد ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن في البر على منعه فبهذا قدر الروم على الصبر على الحصار لأن النجدة كانت تأتيهم من صقلية في كل وقت وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً وأصابتهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر بلغني عن غير واحد أنهم اشتروا الباقلاء في العسكر سبع باقلات بدرهم مؤمني وهو نصف درهم النصاب ثم افتتحها عبد المؤمن – رحمه الله – بعد أن أمن النصارى الذين بها على أنفسهم على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكة صاحبهم ففعلوا ذلك ودخل عبد المؤمن وأصحابه المهدية فملكوها.
وبعث إلى قابس من افتتحها وفيها الروم أيضاً:

امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق

ثم افتتح طرابلس المغرب وأرسل إلى بلاد الجريد – وهي توزر وقفصة ونفطة والحامة وما والى هذه البلاد فافتتحت كلها وأخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم كما تقدم فمحا الله به الكفر من إفريقية وقطع عنها طمع العدو فانتبه بها الدين بعد خموله وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله.
وتم لعبد المؤمن – رحمه الله – ملك إفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب فملك في حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ اختلت دولة بني أمية إلى وقته.

ألوان من شكر النعمة

ثم كر عبد المؤمن راجعاً من إفريقية بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوي التحصيل منهم والثقة أن عبد المؤمن مر في طريقه راجعاً من إفريقية ببجاية فدخل البلد متنزهاً فيه فمر بسويقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطنت فوقف ووقفت معه وجوه دولته فسأل عن بياع بها سماه باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته فقال: هل خلف عقباً؟ قالوا نعم فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقة وأوقفها عليهم وأمر لهم بمال كثير ثم التفت إلى بعض خواصه وقال: له أتيت إلى هذا البياع ولي وللإمام – يعني ابن تومرت – ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم نطعم فيها وما معي إلا سكين الدواة فأخذت منه خبزاً وإداماً ثم وضعت عنده السكين رهناً على ذلك فأبى قبولها وقال: لي إني توسمت فيك الخير فمتى أعوزك شيء فهلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك! فحقه علي أكثر من هذا.

ونظر في هذا اليوم الذي ركب فيه مخترقاً بجاية إلى يحيى بن العزيز يمشي بين يديه راجلاً – وقد علاه الغبار – فدمعت عيناه واستدعاه فقال: له أتذكر يوماً خرجت إلى بعض منتزهاتك فأذكر أني جمعني وإياك هذا الباب فوطئت دابتك عقبي فلما نظرت إليك أمرت بعض عبيدك فوكزني وكزة كدت أقع منها لفي؟ فاستحيا يحيى وتغير لونه وأطرق وجعل يقول: الله الله يا مولاي! وظن أنه الشر فلما رأى ذلك منه قال: له إنما ذكرت لك ذلك على طريق الاعتبار ولتذكر وتنظر كيف تقلب الأيام بأهلها! وأمر له بما زال به روعه.

ومر في طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوح فجاءت منه دوحة عظيمة في وسطها رحبة نقية فأمر أن يضرب خباؤه هنالك – وهو غير مترل معروف – فلما نزل نزلت العساكر واستقر بهم الترول قال: لبعض خواصه أتدرون لم آثرت الترول بهذا المكان؟ قالوا: لا قال: ذلك لأني بت بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً وكانت ليلة ممطورة فما زال هذا الدوح وقائي حتى أصبحت فأردت الترول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرق ما بين المترلتين والفصل ما بين المبيتين! ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل.

وجدت هذه الحكاية بخط رجل من ولد ولد عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد المؤمن.

وبدا له في هذا الوجه أن يمر على القرية التي تسمى تاجراً – وبها كان مولده كما تقدم – لزيارة قبر أمه وصلة من هناك من ذوي رحمه فلما أطل عليها – والجيوش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه

أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية وهزت أكثر من مائتي طبل وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها – فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ممن كانت تصحب أمه هكذا يعود الغريب إلى بلده! تقول ذلك رافعةً صوتها.

وفاء وفداء

ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة ابن تومرت يعرفون بأيت ومغار – معناه بالعربية بنو ابن الشيخ – وانتهوا في ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلاً فيقتلوه وظنوا أن ذلك يخفى من أمرهم وأن عبد المؤمن إذا فقد و لم يعلم من قتله صار الأمر إليهم لأنهم أحق به إذ كانوا أهل الإمام وقرابته وأولى الناس به فأعلم بما أرادوه من ذلك رجل من أصحاب ابن تومرت – من خيارهم اسمه إسماعيل بن يحيى الهزرجي – فأتى عبد المؤمن فقال: له يا أمير المؤمنين لي إليك حاجة! قال: وما هي يا أبا إبراهيم؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية! قال: أن تخرج عن هذا الخباء وتدعني أبيت فيه! – و لم يعلمه بمراد القوم – فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوهبه الخباء لأنه أعجبه فخرج عنه وتركه له فبات فيه إسماعيل المذكور فدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يصيبوا عبد المؤمن فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح فأبوا عليهم فضابوا عنق أحدهم وفر باقيهم وكادوا يغلبون على تلك القصور ثم إن الناس اجتمعوا عليهم من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالاً شديداً من لدن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم و لم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أخذوا قبضاً باليد فقيدوا وجعلوا في السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن – رحمه الله – إلى مراكش فقتلهم صبراً وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة بلغه أنهم قادحون في ملكه متربصون به.

ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر في الخباء مقتولاً على الحال التي ذكرنا أعظم ذلك عبد المؤمن ووجد عليه وجداً مفرطاً أخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه بنفسه ودفن.

و لم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحد ذكر اسمه يحيى نال يحيى هذا في أيام أبي يوسف يعقوب جاهاً متسعاً ورتبة عالية وكذلك في أيام أبي عبد الله محمد كانت أكثر أمورهم ترجع إليه لم يزل كذلك إلى أن مات في شهور سنة 602 وترك بنتاً واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن اسمها فاطمة لا عقب له منها طال عمرها تركتها بالحياة حين فصلت عن مراكش في شهور سنة

.611

ولإسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر يقرب مما قدمنا في النصح والتحذير تلطف فيه إسماعيل غاية التلطف وذلك أن ابن تومرت حين خرج من مراكش على الحال التي تقدمت من إخراج أمير المسلمين إياه عنها سار حتى نزل الضيعة التي فيها أبو إبراهيم فدخل المسجد فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون إلى ابن تومرت ويقول بعضهم لبعض همساً: هذا الذي نفاه أمير المسلمين عن بلاده لإفساده عقول الناس ونحو هذا القول وهموا بقتله تقرباً بذلك إلى أمير المسلمين فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية: "إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين" سورة القصص 20 ففهم ابن تومرت ما أراد وخرج عن تلك الضيعة وعرف لأبي ابراهيم نصحه ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينمل فهو معدود في أهل الجماعة.

ولما قتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً هابه المصامدة وسائر أهل دولته وعظم أمره في صدورهم.

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة 55 وسنة 6 وسنة 7 وفي أول سنة 558 خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس وكتبت عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه فاجتمعت له جموع عظيمة وخرج يقصد جزيرة الأندلس مظهراً للغزو والاحتساب ويتمم أيضاً مع ذلك ما بقي عليه من مملكتها مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سلا فأقام بها ينتظر تكامل العساكر فاعتل علته التي مات منها رحمه الله.

وفاة عبد المؤمن وعهده لولده

وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة 558 هجري. وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كان به ضرب من الجذام فالله أعلم.

ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافاً كثيراً فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة وكان الذي سعى في خلعه – مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك – أخواه يوسف وعمر.

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن يوسف وعمر وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوي الرأي والغناء منهم فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً وبايع لأخيه أبي يعقوب وسلم له الأمر حمله على ذلك فرط عقله وإيثار دينه وحب المصلحة للمسلمين لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية فبايع الناس أبا يعقوب واتفقت عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرهم وذلك كله بحسن سعي أبي حفص عمر بن عبد المؤمن وشدة تلطفه وجودة رأيه فاستوسق لأبي يعقوب هذا أمره وتمت بيعته في التاريخ المذكور وكان الساعي فيها والقائم بها ومدبرها إلى أن تمت – كما ذكرنا – أخوه لأبيه وأمه أبو حفص المتقدم الذكر.

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمه وأم أخيه أبي حفص امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير كان موسى هذا من شيوخ أهل تينمل وأعيانهم من ضيعة يقال لها أنسا وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينمل – برأي ابن تومرت – وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة إبراهيم وعلياً ومحمداً وبنات.

صفة أبي يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة شديد سواد الشعر مستدير الوجه أفوه أعين إلى الطول ما هو في صوته جهارة رقيق حواشي اللسان حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بأشبيلية والياً عليها في حياة أبيه ولقي بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه.

أخبرني من لقيته من ولده كأبي زكريا وأبي عبد الله وأبي إبراهيم إسحاق وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم أنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو وأحفظهم للغة العربية وكان شديد الملوكية بعيد الهمة سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال هذا مع إيثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين – الشك مني إما البخاري أو مسلم وأغلب ظني أنه البخاري – حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن هذا مع ذكر جمل من الفقه وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم ثم طمح

به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي.

أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجوم قال: كنت في شبيبتي أستعير كتب هذه الصناعة – يعني صنعة الأحكام – من رجل كان عندنا بمدينة أشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس فكان يعيرني إياها في غرائر أحمل غرارةً وأجيء بغرارة – من كثرتها عنده – فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسر إلي إن خبرها أنهى إلى أمير المؤمنين فأرسل إلى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي أرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ألا يروع أحداً من أهل الدار وألا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريد استصفاء أموالي فركبت وما معي عقلي حتى أتيت منزلي فإذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج إليه فلما رآني وتبين ذعري قال: لي لا بأس عليك وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم علي وأنه ذكرني بخير و لم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال: لي سل أهل بيتك هل راعهم أحد أو نقصهم شيء من متاعهم؟ فسألتهم فقالوا لم يرعنا أحد و لم ينقصنا شيء جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات فأخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع.

وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه و لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب.

أبو بكر بن طفيل

وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة قرأ على جماعة من المحققين بعلم الفلسفة منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ورأيت لأبي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة حي بن يقظان غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم

وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن ومن تصانيفه الإلهيات رسالة في النفس رأيتها بخطه - رحمه الله - وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي ونبذ ما سواه وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول: لو نفق عليهم علم الموسيقا لأنفقته عندهم وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته أنشدني ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة 606 من شعر أبيه رحمه الله:

ألمت وقد نام المشيح وهوما ... وأسرت إلى وادي العقيق من الحمى
وجرت على ترب المحصب ذيلها ... فما زال ذاك الترب نهباً مطمسا
تناوله أيدي التجار لطيمة ... ويحمله الداري أيان يزعما
ولما رأت أن لا ظلام يجنها ... وأن سراها فيه لن يتكتما
نضت عذبات الريط عن حر وجهها ... فأبدت محيا يدهش المتوسما
فكان تجليها حجاب جمالها ... كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طول تهاجر ... وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر من شق الدجنة منهما
وساعدني جفن الغمام على البكا ... فلم أدر دمعاً أينا كان أسجما
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت ... قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهباً ... يهون صعباً و يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنياً عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره في الزهد - رحمه الله - ما قرأ علي ابنه من خطه في التاريخ المذكور:

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط ... هلا بكيت فراق الروح للبدن؟!
نور تردد في طين إلى أجل ... فانحاز علواً وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا ... أظنها هدنة كانت على دخن

إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما فيا لها صفقة تمت على غبن

وأنشدني بعض أصحابنا من الكتاب له رحمه الله:

ما كل من شم نال رائحةً للناس في ذا تبائن عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم بين المعاني أولئك النجب
وفرقة في القشور قد وقفوا وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية تتجلى لناظرهم منه ولا ينقضي لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جبلته قد قسمت في الطبيعة الرتب

و لم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم وهو الذي نبهه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشيد فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم:

أبو الوليد بن رشد

أخبرني تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بندود بن يحيى القرطبي قال: سمعت الحكيم أبا الوليد يقول: غير مرة لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال: لي ما رأيهم في السماء يعني الفلاسفة أقديمة هي أم حادثة فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة و لم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له و لم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب.

وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال: استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً فقال: لي سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه قال: أبو الوليد فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم

أرسطو طاليس.

وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان وكتاب السما والعالم ورسالة الكون والفساد وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحسن والمحسوس ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء.

رجع الحديث عن الأمير أبي يعقوب

وفي الجملة لم يكن في بني عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا.

وزراؤه

وزر له أخوه عمر أياماً يسيرة ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه.

ثم وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع إلى أن قبض عليه واستصفى أمواله في شهور سنة 577.

ووزر له بعده ابنه أبو يوسف ولي عهده إلى أن مات سنة 580.

فكانت ولايته من حين بويع له إلى أن استشهد رحمة الله عليه ببلاد الروم اثنتين وعشرين سنة إلا أشهراً.

كتابه

أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمي وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمي إلى أن مات فكتب مكانه. هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة وكتاب الجيش أبو الحسين الهوزني الإشبيلي وأبو عبد الرحمن الطوسي.

حاجبه

كافور مولاه الخصي كان يدعى كافور بغرة.

أولاده

كان له من الولد ثمانية عشر ذكراً وهم عمر ويعقوب – وهو ولي عهده – وأبو بكر وعبد الله وأحمد ويحيى – كان يحيى هذا – رحمه الله – لي صديقاً ومن جهته أكثر أخبارهم لم أر في الملوك ولا في السوقة مثله – رحمه الله – عليه وماااستجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظ الخدمة إلا لما كان رحمه الله يكتب إلي أخي وصديقي في بعض الأوقات ووليي في بعضها اجتمعت عندي بخطه رقاع كثيرة خلع علي فيها فضله وحلاني بما لم أكن استحقه وموسى وإبراهيم وإدريس وعبد العزيز وطلحة وإسحاق ومحمد وعبد الواحد وعثمان وعبد الحق وعبد الرحمن وإسماعيل وبنات.

قضاته

أبو محمد المالقي المتقدم الذكر ثم عزله وولي بعده عيسى بن عمران التازي من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس من قبيلة يقال لها تسول من البربر يرجعون إلى زناتة.

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم وكان خطيباً مصقعاً وبليغاً لسناً وشاعراً مفلقاً مشاركاً في كثير من العلوم ونال في أيام أبي يعقوب حظوة ومكانة كان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع إليه مفرط أخبرني ابنه أبو عمران – قاضي الجماعة في وقتنا هذا – قال: سمعت أبي يقول: وقد لامه بعض من يلوذ به في التنويه بأقوام ليست لهم سوابق ولا أقدار رفعهم من الحضيض جاهه ونبههم بعد الخمول اعتناؤه ليس العجب ممن يأتي إليه رجل نبيه القدر يرفعه إنما العجب ممن يحيي الميت وينبه الخامل ويرفع الوضيع فأما النبيه القدر فنباهته تكفيه.

وبلغ من إفراطه في التعصب أن قال: يوماً ليس بحماية أن تحمي صاحبك وهو محق فإن الحق أظهر وأقوى من أن يحمى إنما الحماية أن تحمية وهو مبطل في أشباه لهذه الأخبار.

وكان له أولاد ما منهم إلا من ولي القضاء وهم علي وكان علي هذا رجلاً صالحاً ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ثم عزل عنها وولي مدينة تلمسان وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل في دينه وممن لا تأخذه هوادة في الحق ومن أولاده طلحة ولي قضاء تلمسان ويوسف تركته قاضياً بمدينة فاس بلغتني وفاته وأنا بمكة في سنة 620 وأبو عمران موسى قاضي الجماعة في وقتنا هذا وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله عز وجل.

ثم ولي بعد أبي موسى هذا رجل اسمه حجاج بن إبراهيم التجيبي من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مراكش كان حجاج هذا رجلاً صالحاً يعد في الزهاد المتبتلين وكان له تبحر في الفقه ومعرفة بأصوله وبصر بعلم الحديث هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم في الحق أفرط في ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ونالوا منه عند أبي يعقوب فما زاده ذلك إلا حباً وتقريباً إلى أن مات –

رحمه الله – في حياة أبي يعقوب بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته أنه دخل يوماً على أمير المؤمنين أبي يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه فلما مثل بين يديه زاد في البكاء فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه فقال: يا أمير المؤمنين سألتك بالله ألا أعفيتني قال: عزمت عليك لتخبرني أولاً بسبب بكائك قال: بينا أنا قاعد في مجلس الحكم إذ أتيت بشيخ سكران كنت قد حددته مراراً فكان من كلامي أن قلت: له يا شيخ كيف تحشر ففتح يديه وقال: هكذا فوالله ما ملكت دمعتي حين عرفت ما عني بقوله إنما عرض لي بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن القاضي يحشر مطوقة يداه إلى عنقه فإما أن يحله عدله أو يهوي به جوره!" هذا معنى الحديث فأسألك بالله ألا أعفيتني؟ فوعده بذلك فقال: عسى أن يكون في مقامي هذا فقال: له لا أفعل حتى أجد عوضاً منك فخرج من عنده فما لبث إلا أياماً يسيرة حتى مات رحمة الله عليه!.

ثم ولي بعده القضاء أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل مدينة قرطبة فلم يزل أبو جعفر هذا قاضياً إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب وصدراً من خلافة أبي يوسف المنصور رحمه الله.

فصل دخول بني مردنيش في طاعة الموحدين

ولما استوثق لأبي يعقوب هذا الأمر لم يزل مقيماً بمراكش إلى أن كانت سنة 567 فبدا له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس مظهراً قصد غزو الروم ومبطناً إتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما في يد محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش منها وكان يملك منها ابن سعد المذكور من أول أعمال مرسية إلى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقيها – وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته إياها ومن أين اتصلت إليه – فجمع أمير المؤمنين أبو يعقوب جموعاً عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من أصناف الجند وسار حتى نزل مدينة سبتة فبني له بها مترل وهو باق هناك إلى اليوم فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ولحق به من كان تأخر عنه من العساكر ثم عبر البحر وقصد مدينة أشبيلية فترلها وجهز العساكر إلى محمد بن سعد.

وكان أخو أبي يعقوب عثمان بن عبد المؤمن والياً على مدينة أغرناطة فكتب إليه أن يقصد بالعساكر إلى مدينة مرسية – دار مملكة محمد بن سعد – فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يدعى الجلاب وخرج إليه محمد بن سعد في جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج لأن ابن سعد كان مستعيناً بهم في حروبه قد اتخذهم أجناداً له وأنصاراً وذلك حين أحس باختلاف وجوه القواد عليه وتنكر أكثر الرعية له فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعةً بأنواع من القتل بلغني أن منهم من بنى عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً إلى غير هذا من ضروب القتل واستدعى النصارى كما ذكرنا فجعلهم أجناداً له وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم.

فزحف كما ذكرنا بجيشة – ومعظمهم من الإفرنج – فالتقى هو والموحدون بالموضع المعروف بالجلاب على أربعة أميال من مرسية فانهزم أصحاب محمد ابن سعد انهزاماً قبيحاً وقتل من أعيان الروم جملة ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار فضايقه الموحدون وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه وسترت وفاته إلى أن ورد أخوه يوسف بن سعد الملقب بالرئيس من بلنسية وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد فاجتمع رأيه ورأي أكابر ولد محمد بن سعد – بعد أن أتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل وجه من وجوه الحيل على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب ويسلموا إليه البلاد ففعلوا ذلك وقيل إن أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه – وكان له من الولد على علمي ثمانية ذكور وهم: هلال – يكنى أبا القمر وهو أكبر ولده وإليه أوصى – وغانم والزبير وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر وأصاغر لا علم لي بأسمائهم وبنات تزوج إحداهن أمير المؤمنين أبو يعقوب وتزوج الأخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف – فكان فيما أوصاهم به أن قال: يا بني إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن يترل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة ففعلوا ما أمرهم به فالله أعلم أي الأمرين كان.

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من أشبيلية قاصداً بلاد الأدفنش – لعنه الله – فترل على مدينة له عظيمة تسمى وبذة وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة فأقام محاصراً له أشهراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد أخبرني جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الأمر أن أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم على أن يخرجوا له عن المدينة فأبى ذلك عليهم وأطعمه فيهم ما نقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم فلما يئسوا مما عنده سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وجلبة أصوات وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمن باقيهم فجاء مطر عظيم كأفواه القرب ملأ ما كان عندهم من الصهاريج وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى أشبيلية بعد أن هادن الأدفنش – لعنه الله – مدة سبع سنين.

و لم يزل أمير المؤمنين مقيماً بالأندلس بقية سنة سبع وثمان وتسع إلى أن رجع إلى مراكش في آخر سنة 569 وقد ملك الجزيرة بأسرها ودانت له بجملتها و لم يخرج عن طاعته شيء منها.

الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب

وفي سنة 571 خرج إلى سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بدرن فتم له ما أراد من إخماد الفتنة وجمع الكلمة وإطفاء النائرة وحسم الخلاف.

وفي صدر سنة 73 رام بعض القبيلة المسماة بغمارة مفارقة الجماعة ونزع اليد من الطاعة وكان رأسهم في ذلك الذي إليه يرجعون وعميدهم الذي عليه يعولون رجل اسمه سبع بن حيان ووافقه على ذلك أخ له يسمى مرروغ فدعوا إلى الفتنة واجتمع عليهما خلق كثير والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حرز لكثرها مسافة بلادها طولاً وعرضاً نحو من اثنتي عشرة مرحلة فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه فأسلمتهما جموعهما وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما وأخذا قبض اليد فقتلا صبراً وصلباً ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش.

وفي أول سنة 575 خرج أبو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد إفريقية فقصد منها مدينة قفصة وكان قد قام بها رجل اسمه علي يعرف بابن الرند وتلقب بالناصر لدين النبي فحاصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن استترلوه وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ورجعوا إلى مراكش.

صلح ملك صقلية

وفي هذه السفرة صالحه ملك صقلية وأرسل إليه بالأتاوة بعد أن خافه خوفاً شديداً فقبل منه ما وجه به إليه وهادنه على أن يحمل إليه في كل سنة مالاً اتفقا عليه وبلغني أنه اتصلت إليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى – الحافر جعلوه فيما كللوا به المصحف لا قيمة له على قدر استدارة حافر الفرس هو في المصحف إلى اليوم – مع أحجار نفيسة.

المصحف العثماني في المغرب

وهذا المصحف الذي ذكرناه وقع إليهم من نسخ عثمان – رضي الله عنه – من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة وقد جعلوا تحته بردعةً من الديباج الأخضر يجعلونه عليها وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لواءان أخضران وموضع الأسنة منهما ذهب شبه تفاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضاً عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة مموهة بالذهب هذا كله بين يدي الخليفة منهم.

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش من إفريقية بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها كما ذكرنا وكثرت في أيامه الأموال واتسع الخراج.

حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك:

وكان كما ذكرنا – سخياً جواداً بلغني أنه أعطى هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر – صاحب شرقي الأندلس – اثني عشر ألف دينار في يوم واحد ولهلال هذا معه أخبار عجيبة من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحبه له أخبرني بعض ولد هلال هذا أنه سمع أباه يقول: رأيت في المنام في بعض الليالي كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولني مفتاحاً فلما أصبحت إذا رسوله يستحثني فركبت وأتيت القصر فدخلت عليه وسلمت فاستدناني حتى مست ثيابي ثيابه ثم أخرج إلي من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذي رأيت في المنام وقال: خذ إليك هذا المفتاح فتهيبت أن أسأل عن شأن المفتاح فقال: لي ابتداء يا أبا القمر إن عامل مرسية أرسل إلينا في جملة ما أرسل صندوقاً وجده – زعم – في بعض خزائنكم لا يدري ما فيه وهذا مفتاحه ونحن لا ندري ما فيه! فقلت: هلا أمر أمير المؤمنين أن يفتح بين يديه فقال: لو أردنا أن يفتح بين أيدينا لم نسلم إليك المفتاح وأمر فحمل الصندوق إلي ففتحته فإذا فيه حلي وذخائر من ذخائر أبي ما يساوي أكثر من أربعين ألف دينار.

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحدين ليدرسوها – وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم – فجمع العلماء ذلك وجاءوا به إليه فكان يمليه على الناس بنفسه فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الإملاء فجاء هلال هذا المذكور يوماً ولا لوح معه فأخرج القوم ألواحهم فقال: له الوزير أين لوحك يا أبا القمر؟ فخجل وافتتح يعتذر فأخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناوله إياه وقال: هذا لوحه! فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له أمير المؤمنين فلما نظر إليه قال: له أين لوحك بالأمس يا أبا القمر؟ فقال: خبأته وأوصيت إذا مت أن يجعل بين جلدي وكفني وأتبع ذلك بكاء حتى أبكى بعض من كان في المجلس فقال: أمير المؤمنين هذا المحب الصادق! وأمر له بخيل وأموال وخلع ولبنيه بمثل ذلك.

اتساع الدولة وزيادة الخراج

وكان الذي يسهل عليه بذل الأموال مع ما جبل عليه من ذلك سعة الخراج وكثرة الوجوه التي يتحصل منها الأموال.

كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته في كل سنة وفر مائة وخمسين بغلاً هذا من إفريقية وحدها خلا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها والمغرب – وحد عمل المغرب عندهم الذي يطلقون عليه هذا الاسم من

مدينة تدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبعة مراحل وهي أخصب رقعةً على الأرض فيما علمت وأكثرها أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفةً وزروعاً وأعناباً – ومدينة سلا وأعمالها وسبتة وأعمالها – وأعمال سبتة هذه في غاية السعة والضخامة لأن بلاد غمارة كلها ترجع إليها وهي كما ذكرنا طولاً وعرضاً نحو من اثنتي عشرة مرحلة – وجزيرة الأندلس قاطبةً أول ذلك آخر بلاد المسلمين مما يتاخم أرض الروم وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شلب ومسافة ذلك طولاً وعرضاً نحو من أربع وعشرين مرحلة.

هذا كله لا ينازعه إياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم مضافاً إلى مراكش وأعمالها وأعمال مراكش أيضاً في نهاية من السعة لأن بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً كثيره فلم يرتفع لملك من الملوك – أعني ملوك المغرب – قبل أبي يعقوب هذا وبعده ما ارتفع إليه من الأموال.

وقد بلغني من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال قال: لي وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب بختمها قال: لي هذا القول في غرة سنة 611.

وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها من الغز وذلك في آخر سنة 574 وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبي يوسف.

و لم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معايش لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها واستمر هذا صدراً من إمارة أبي يوسف.

:محاولة أبي يعقوب فتح شنترين ووفاته

ولما كانت سنة 79 تجهز أبو يعقوب للغزو واستنفر أهل السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة الأندلس فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا وقصد مدينة أشبيلية على عادته إذ هي مترله ومترل الأمراء من بنيه بالأندلس أيام كونهم بها فأقام بها ريثما أصلح الناس شئونهم وأخذوا اهبتهم ثم خرج يقصد مدينة شنترين – أعادها الله للمسلمين – وهذه المدينة – أعني شنترين – بمغرب الأندلس وهي من أمنع المدائن وقد تقدم ذكرها في أخبار الدولة اللمتونية – يملكها وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ملك من ملوك النصارى يعرف بابن الريق – لعنه الله – فخرج أمير المؤمنين – كما ذكرنا – في جيوشه حتى نزل عليها فضايقها وأخذ في قطع ثمارها وإفساد زروعها وشن الغارات على نواحيها وكان ابن الريق – لعنه الله – حين سمع بحركة أبي يعقوب إليه وصح عنده أنه يقصده نظر في أمره فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته فلم يكن له هم إلا أن جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوي الغناء من قواده وسائر أتباعه ودخل بهم مدينة شنترين واثقاً بحصانتها وشدة منعتها هذا بعد أن ملأها أقواتاً

وسلاحاً وجميع ما يحتاج إليه وجلل أسوارها مقاتلة معهم الدرق والقسي والحراب إلى غير ذلك مما يحتاج إليه.

فنزل عليها أبو يعقوب فألفاها كما ذكرنا قد استعد أهلها بكل ما يظنونه نافعاً ودافعاً لهم عنهم وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس المشهورة يسمى تاجو فبالغ أبو يعقوب – كما ذكرنا – في التضييق عليها وانتساف معايشها وقطع المواد والمدد عنها فما زاد ذلك أهلها إلا صرامة وشدة وجلداً فخاف المسلمون هجوم البرد وكان في آخر فصل الخريف وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى أشبيلية فإذا كان وجه الزمان عادوا إليها أو بعث من يتسلمها وصوراً له أنها في يده لا يمنعه منها مانع فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه وقال: نحن راحلون غداً إن شاء الله و لم ينتشر هذا القول كل الانتشار لأنه كان قاله في مجلس الخاصة فكان أول من قوض خباءه وأظهر الأخذ في أهبة الرحيل أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقي – وقد تقدم ذكر أبيه في قضاة عبد المؤمن – وكان أبو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم يدعى خطيب الخلافة وكان له حظ جيد من الفقه ومعرفة الحديث وقسم وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة فلما رآه الناس قوض خباءه قوضوا أخبيتهم ثقة به لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها فعبر في تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيد المواضع واختيار المنازل و لم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين.

وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل ورأوا انفضاض الأجناد وافتراق أكثر الجموع خرجوا منتهزين للفرصة التي أمكنتهم في خيل كثيفة فحملوا على من يليهم من الناس فانهزموا أمامهم حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب فقتل على باب الخباء من أعيان الجند خلق كثير أكثرهم من أعيان الأندلس وخلص إلى أبي يعقوب فطعن تحت سرته طعنة مات منها بعد أيام يسيرة.

وتدارك الناس فانهزم الروم راجعين إلى بلدهم بعد أن قضوا ما قضوا وعبر بأمير المؤمنين النهر جريحاً فجعل في محفة وسير به.

عاقبة أبي الحسن المالقي الخطيب :

وسأل أمير المؤمنين من كان السبب في حركة الناس على هذا الوجه المؤدي إلى هذا الاختلال؟ فأخبر بما فعله أبو الحسن المالقي فقال: يتوعده سيجني ثمرتها إن شاء الله فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فاراً بنفسه على ملك الروم ابن الريق فأحسن نزله وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقاً واسعاً و لم يزل عنده مكرماً إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحدين يستعطفهم ويسأل من عرفه من أعيانهم الشفاعة له وأدرج في ضمن ذلك فصلاً يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ويدلهم على بعض عوراتها مما كان خفي عنهم وقال: لملك الروم ابن الريق إني أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالي وأولادي وأخبرهم بسلامتي وأعلمهم إكرام الملك إياي وإحسانه إلي وما أنا فيه من العافية حتى تطمئن نفوسهم وأريد أن توجه مع الذي يحمله من يخفره إلى أول بلاد المسلمين فأذن له في ذلك وأجابه إليه فكتب الكتاب.

وكان العلج الموكل به الذي يقوم عليه ويأتيه بكل ما يحتاج إليه يعرف لسان العرب إلا أنه لم يكن يتكلم به ويقرأ الخط العربي فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشوراً و لم يخطر له أن العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربي فلمح العلج الكتاب لمحة ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر.

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحو من مرحلة أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتاب منه فلما أتي بالكتاب فتحه وجمع المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور واستحضر أبا الحسن وقال: لترجمانه قل له ما حملك على ما صنعت مع إكرامي لك وبري بك؟ فكان من جوابه أن قال: إن برك بي وإكرامك إياي لا يمنعاني من النصح لأهل ديني والدلالة لهم على ما فيه مصلحتهم فشاور ابن الريق – لعنه الله – قسيسيه في أمره فأشاروا عليه بإحراقه فأحرقوه.

وفاة الأمير أبي يعقوب

وأما ما كان من أمر أمير المؤمنين أبي يعقوب فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا أثقله الجرح واشتد عليه فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثا حتى مات رحمه الله فأخبرني من كان معهم في تلك السفرة أنه سمع النداء فيما بين العشاءين في العسكر كله الصلاة على الجنازة جنازة رجل فصلى الناس قاطبة على الجنازة لا يعرفون على من صلوا و لم يعلم بذلك إلا خواص أهل الدولة وساروا به حتى بلغوا أشبيلية فترلوها فصبروه وبعثوا به في تابوت مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر إلى تينمل فدفن هناك مع أبيه عبد

المؤمن وابن تومرت.

وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة 580.

أخبرني ابنه أبو زكريا يحيى – رحمة الله عليه – أنه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت:

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكرتني ذوات الأعين النجل!

:ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي كما ذكرنا يكنى أبا يوسف أمه أم ولد رومية اسمها ساحر بويع له في حياة أبيه بأمره بذلك وكانت سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن توفي في شهر صفر الكائن في سنة 595 ست عشر سنة وثمانية أشهر وأياماً وتوفي وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب.

صفته

كان صافي السمرة جداً إلى الطول ما هو جميل الوجه أعين أفوه أقنى شديد الكحل مستدير اللحية ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن كان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن مجرباً للأمور عارفاً بأصول الشر والخير وفروعهما ولي الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور فدبرها بحسب ذلك فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم.

أولاده

كان له من الولد محمد – ولي عهده وسيأتي ذكر مولده ووفاته – وإبراهيم وعبد الله وعبد العزيز وأبو بكر وزكريا وإدريس وعيسى وموسى وصالح وعثمان ويونس وسعد ومساعد والحسن والحسين هؤلاء أولاده المخلفون بعده ومات له في حياته عدة من الولد وله بنات فيهن كثرة.

وزراؤه

أبو حفص عمر بن أبي زيد الهنتاتي إلى أن مات.

ثم وزر له بعده أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص عمر إينتي المتقدم الذكر واستمرت وزراة أبي

يحيى هذا إلى أن استشهد – رحمه الله – ببلاد الروم على ما سيأتي بيانه إن شاء الله فاضطرب أمر الوزارة قليلاً.

ثم وقع اختيارهم على أبي بكر محمد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل هو ابن عم الوزير الشهيد أبي يحيى المذكور آنفاً فوزر أبو عبد الله هذا أياماً يسيرة ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحي أشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد فأرسلوا إليه من رده وأعفوه من الوزارة.

ثم وزر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاتي فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يوسف وصدراً من إمارة ابنه أبي عبد الله ثم عزل عن الوزارة.

حجابه

عنبر الخصي مولاه ثم ريحان الخصي مولاه أيضاً إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله فلم يزل حاجباً له إلى أن مات ريحان المذكور.

كتابه

أبو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة كان من كتاب أبيه – حسبما تقدم جمع أبو الفضل جعفر هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس لم يزل كاتباً له إلى أن توفي أعني أبا الفضل.

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشانة من أعمال المرية من بلاد الأندلس لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف تركته حياً حين ارتحلت عن البلاد سنة 614 ثم اتصلت بي وفاته في شهور سنة 619 انا يومئذ بالبلاد المصرية.

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما كاتبا الإنشاء خاصة.

وكتاب الجيش رجل يعرف بالكباشي ذهب عني اسمه وقد كان يكتب قبله أبو الحسن بن مغن استمرت كتابة الكباشي هذا ديوان الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف.

و لم يكتب لهم منذ قام أمرهم – أعني من كتبة الإنشاء – من عرف طريقتهم وصب في قالبهم وجرى على ميعهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله ابن عياش هذا فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة.

قضاته

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر إلى أن مات وولي بعده أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وهران ثم عزله وولي بعده أبا القاسم أحمد بن محمد رجلاً من ولد بقي بن مخلد الفقيه المحدث الذي يروي عن أحمد بن حنبل وقد تقدم ذكر بقي هذا وطرف من أخباره في صدر الدولة الأموية في أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس لم يزل أبو القاسم هذا قاضياً إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو يوسف وشيئاً من أيام ابنه محمد.

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يعقوب – كما ذكرنا – على مراحل من مدينة شنترين سترت وفاته إلى أن بلغوا أشبيلية وهم في كل يوم يصبحون يمشون بين يدي الدابة التي عليها المحفة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ثم يركبون والمحفة مسدول عليها ستر أخضر إلى أن بلغوا أشبيلية – كما ذكرنا – فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبي يعقوب زعموا بتجديد البيعة لابنه أبي يوسف فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الأصناف.

وكان الذي سعى في بيعته وقام بها ورغب فيها وتولى كبر أمرها ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن فتم له الأمر وبايعه الناس يحسبون ذلك بإذن أبيه فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهيأ له أعلن وفاة أبيه عند خواص الدولة و لم تجر عادتهم بإعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هلم.

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلاً للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء صباه فلقي منهم شدة – على ما سيأتي بيانه – وكانت هذه البيعة العامة – كما ذكرنا – في سنة 580.

ولما استوسق أمره – على ما تقدم – عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سلا وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكأ عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن بعد ما ملأ أيديهم أموالاً وأقطعهم الأقطاع الواسعة.

بنيان مدينة الرباط

ثم شرع في بنيان المدينة العظمى التي على ساحل البحر والنهر من العدوة التي تلي مراكش وكان أبو يعقوب – رحمه الله – هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدأ في بنيانها فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها فشرع أبو يوسف – كما ذكرنا – في بنيانها إلى أن أتم سورها وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مأذنة في نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيه بغير درج تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها

و لم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف و لم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً وأما المدينة فتمت في حياة أبي يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها وهي مدينة كبيرة جداً تجيء في طولها نحواً من فرسخ وهي قليلة العرض.

ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة 594 وسار هو حتى نزل مراكش.

طمع بني غانية في التغلب على إفريقية

وفي هذه السنة أعني سنة 580 – خرج الميرقيون بنو ابن غانية من جزيرة ميرقة قاصدين مدينة بجاية فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة وهذا أول احتلال وقع في دولة المصامدة لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة 621.

التعريف ببني غانية ودار ملكهم

وتلخيص خبر هؤلاء القوم – أعني بني غانية – أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وجه إلى الأندلس برجلين اسم أحدهما يحيى والآخر محمد ابني علي من قبيلة مسوفة يعرفان بابني غانية – وهي أمهما – فأما يحيى منهما وهو الأكبر فكان حسنه من حسنات الدهر اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله – عز وجل – والتعظيم له والاحترام للصالحين هذا مع علو قدم في الفقه واتساع رواية للحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس وكان علي بن يوسف يعده للعظائم ويستدفع به المهمات وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكارة قد كانت نزلت بهم كان أمير المسلمين ولاه مدينة بلنسية ثم عزله عنها وولاه قرطبة فلم يزل بها والياً إلى أن مات رحمة الله عليه أول الفتنة الكائنة على المرابطين لا أعلم له عقباً.

محمد بن غانية

وكان أخوه محمد والياً من قبله على بعض أعمال قرطبة فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقي يجول في بلاد الأندلس والفتنة تتزيد ودعوة المصامدة تنتشر فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية فعبر منها

إلى جزيرة ميرقة في حشمه وأهل بيته فملكها والجزيرتين اللتين حولها منرقق ويابسة ويقال إن أمير المسلمين علي بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها فالله أعلم.

وهذه الجزيرة – أعني ميرقة – أخصب الجزر أرضاً وأعد لها هواء وأصفاها جواً طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب إلى غير ذلك مما يخشى ضرره ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها في الخصب تسمى إحداهما منرقة والأخرى يابسة وقد تقدم ذكرهما.

فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر وضبطها لنفسه وأقام فيها جارياً على أمر لمتونة الأول يدعو لبني العباس وكان له من الولد عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة وبنات.

فعهد في حياته إلى أكبر ولده عبد الله فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ودخل عليه في جماعة من الجند وعبيد له فقتله – قيل في حياة أبيه – وقيل بعد وفاته – وتوفي عبد الله المذكور.

إسحاق بن محمد

واستقل أبو إبراهيم بالملك استقلالاً حسناً وحسنت حاله وكثر الداخلون عليه بجزيرة ميرقة من فل لمتونة وبقاياهم فكان يحسن إليهم ويصلهم حسب طاقته.

وأقبل على الغزو وصرف عنايته إليه فلم يكن له هم غيره فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً فقوي بذلك أمره وتشبه بالملوك و لم يزل هذه حاله إلى أن توفي في سنة 579 وفي أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبي ويغنم بنفيسه وجيده يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها فلما كان في شهور سنة 578 والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه فاختلفوا عليه فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وحاض له على الدخول فيما دعوه إليه فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر.

وخرج إلى بلاد الروم غازياً فاستشهد – رحمه الله – هناك وقيل إنه طعن طعنة في حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جيء به حياً حتى أدخل قصره فمات فيه فالله أعلم.

وكان له من الولد علي وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده وعبد الله ويحيى وأبو بكر وسير وتاشفين ومحمد والمنصور وإبراهيم توفي إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل.

علي بن إسحاق

ولما توفي أبو إبراهيم إسحاق بن محمد المذكور قام بالأمر من بعده ابنه علي بعهد أبيه إليه وخرج بأسطول ميرقة إلى العدوة وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها – على ما يقال – يدعونه إلى أن يملكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ومما جرأه أيضاً كون الموحدين بالأندلس وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ فكان هذا أيضاً مما أعانه على الخروج ولولا هذه الأسباب التي ذكرنا لم يجسر على الخروج.

فقصد ساحل بجاية فترل به فقاتله أهلها قتالاً غير كثير ثم دخلها وكان دخوله إياها – كما ذكرنا – يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة.

استطراد عن انتقاض العرب بإفريقية على الموحدين

وكان فيها إذ دخلها أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن لم يكن والياً عليها وإنما كان الوالي عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان أبو موسى ماراً ها حين رجع من إفريقية وكان والياً عليها هو وأخوه الحسن من قبل أخيهما أبي يعقوب فظهر من العرب إفساد ببعض نواحي إفريقية فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو علي بجيش من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند فالتقوا هم وأولئك العرب المفسدون فاهزم جند إفريقية عنهما وأخذهما العرب أسيرين فأقاما عندهم وانتهى الخبر إلى أبي يعقوب فأرسل إلى أولئك العرب فطلبوا مالاً اشتطوا فيه غاية الاشتطاط ثم إن الأمر تقرر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال فلما أخبر بذلك أبو يعقوب استكثر المال وقال: هذه أيضاً مضرة أخرى إن أعطيناهم مثل هذا المال تقووا به على ما يريدونه من الفساد ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة ففعلوا ذلك وأرسلوا ها إليهم فأطلقوا أبا علي وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما فهذا ما أوجب كون أبي موسى ببجاية فخرج من أسر العرب إلى أسر الميرقيين.

رجع الحديث عن بني غانية في بجاية

فدخل علي بن إسحاق – كما ذكرنا – بجاية في اليوم التالي المؤرخ وأقام ها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبني العباس ثم للإمام أبي العباس أحمد الناصر منهم وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبد الحق ابن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي – مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التآليف –

فأحنق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ورام سفك دمه فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه!.

وخرج علي بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها وسار حتى نزل على قلعة بني حماد فملكها وملك جميع تلك النواحي فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية فلما سمع علي بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد.

استرجاع بجاية من يد الميورقيين

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية فتلقاه أهلها فلقيهم منشرح الصدر ظاهر البشر وقال: لهم من القول ما بسط به نفوسهم ورد إليهم نافر أنسهم وقد كانوا يظنون غير ذلك فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا.

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدين رجلاً اسمه محمد بن أبي سعيد الجنفيسي ثم سار حتى نزل مدينة تونس فجهز جيشاً عظيماً أمر عليهم رجلاً من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب – وذلك لما كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب بموضع يعرف بوطا عمره – فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر وذلك أن الموحدين التقوا هم وأصحاب علي بن غانية فانهزم الموحدون انهزاماً قبيحاً واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه وهلك أكثرهم عطشاً ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين فلم شعثهم وجبر ما وهى من أحوالهم وخرج هو بنفسه حتى لقي علي بن غانية بموضع يعرف بالحامة حامة دقيوس فما وقف أصحاب علي إلا يسيراً حتى انكشفوا عنه وأبلى هو عذراً فأثخن جراحاً وخرج فاراً بنفسه فمات في خيمة لعجوز أعرابية.

وكان حين خرج من ميرقة خرج معه من إخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير فبقي هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه فقدموه ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه.

استرجاع قفصة

وفي هذه السفرة انتقضت عليهم أيضاً مدينة قفصة ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقيين فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ثم دخلها عنوة فقتل أهلها قتلاً ذريعاً بلغني أنه قتل أكثرهم ذبحاً وأمر بأسوارها فهدت.

إبراهيم الزويلي الكاتب

وفي ذلك يقول: رجل من أصحابنا من الكتاب – اسمه إبراهيم – يعرف عندنا بالزويلي في قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورميهم إياها بحجارة المنجنيق:

سائل بقفصة هل كان الشقي لها ... بعلاً وكانت له حمالة الحطب

تبت يدا كافر بالله ألهبها ... فكان كالكافر الأشقى أبي لهب

وفيها يقول:

لما زنت وهي تحت الأمر محصنة ... حصبتموها اتباع الشرع بالحصب

أنشدني – رحمه الله – هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها فلما انتهى إلى هذا البيت لما زنت غلبني الضحك لما سبق إلى خاطري من سوء معناه فسترت وجهي فقال: لي ما لك؟ فلم أملك أن قهقهت! فتغير لي فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق إلى خاطري فسبني وقال: لي أنت والله شيطان سيء القريحة غالب على طباعك اللهو!.

واستمر في إنشاده حتى أتم القصيدة.

وأبو إسحاق الزويلي هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء جمعتني وإياه مجالس عند السيد الأجل أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ما قضيت منه العجب.

رجع الحديث عن بني غانية

ولما فرغ أبو يوسف من أمر إفريقية كر راجعاً إلى المغرب.

و لم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة ميرقة فألفاها قد انتقضت عليهم ودعي فيها للموحدين فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق فلما قدم عبد الله قام معه علج من علوج أبيه يسمى نجاحاً كان نجاح هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة وكان متحصناً في قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالي والجند فلما قدم عبد الله – كما ذكرنا –

تلقوه وانضاف إليهم خلق من بوادي الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم فنهد بهم عبد الله إلى المدينة فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع ففتحوا له الأبواب ودخلها بمن معه وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس فحظي محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة وولوه مدينة دانية فلم يزل واليها عليها حتى مات.

واستقر عبد الله بميرقة فضبط أمرها وجرى في الغزو وإخافة العدو على سنن أبيه فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحدون في سنة 599 على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

و لم يزل أمر يحيى بإفريقية ينبه تارة ويخمل أخرى وله أخبار يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها.

اختلاف بني عبد المؤمن

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً في هذا الوجه الذي ذكرنا طمع في الأمر أخوه أبو حفص عمر المتلقب بالرشيد وعمه سليمان بن عبد المؤمن وكان أحدهما بشرقي الأندلس بمدينة مرسية والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة.

فأما أبو الربيع سليمان فسولت له نفسه وزين له سوء رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ما أراد فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعثت عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأشنوعة القبيحة وبلغ الخبر أمير المؤمنين.

وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتنقص أمير المؤمنين أبي يوسف على رءوس الأشهاد تعريضاً مرة وتصريحاً تارة وإلقاء ذلك إلى خواصه ليلقوه إلى وجوه الأندلس وانتهى أن قتل قاضي مرسية وخطيبها المعروف بابن أبي جمرة وقيل إنه وكزه برئاس السيف في صدره وكزة مات منها بعد أيام.

فاستحثت هذه الأخبار أمير المؤمنين وأزعجته فعجل من بجاية إلى فاس سبع عشرة مرحلة وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير لمثله فلما سمع بقدومه أبو الربيع سليمان وعمر المذكوران خرجا يلتقيانه فعبر عمر البحر وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضاً فأما عمر فلقيه بالقرب من مدينة مكناسة فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه فلما قرب منه لم تدر بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده وحمل بعد التقييد إلى مدينة سلا ولقيه سليمان عمه ففعل به مثل ذلك وسار حتى نزلا مدينة سلا وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما وأثقلهما بالحديد وسار حتى بلغ مراكش فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاة عليهما ودفنهما فقتلهما صبراً ودفنهما وكتب يعلمه بذلك فبلغني أنه قال: له بنيت قبريهما بالكذان والرخام وجعل يذكر حسنهما فكتب إليه ما لنا ولدفن الجبابرة إنما هما رجلان من المسلمين فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين.

وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأشربت قلوبهم خوفه بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له لأشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك وكان قتله هذين الرجلين في سنة 583 وأظهر بعد ذلك زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل.

وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة.

دعوة أبي يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة

وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجد أنه أخبرهم قال: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال: لي يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال: لي وقطع كلامي يا أبا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجده ونال عنده

طلبة العلم – أعني علم الحديث – ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده وانتهى أمره معهم إلى أن قال: يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء – يعني الطلبة – لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون في برهم وإكرامهم.

استرجاع مدينة شلب

ولما كان في سنة 585 قصد بطرو بن الريق – لعنه الله – مدينة شلب من جزيرة الأندلس فترل عليها بعساكره وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه على أن يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها وسبوا أهلها وملك ابن الريق – لعنه الله – البلد.

وتجهز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر و لم يكن له هم إلا مدينة شلب المذكورة فترل عليها فلم تطق الروم دفاعه وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها و لم يكفه ذلك حتى أخذ حصناً من حصونهم عظيماً يقال له طرش ورجع إلى مراكش.

:!طامع آخر من بني عبد المؤمن

وبعد رجوعه مرض مرضاً شديداً خيف عليه منه وكان قد ولى أخاه أبا يحيى الأندلس فجعل يتلكأ في خروجه ويبطئ تربصاً به وطمعاً في وفاته وكلما أفاق هو سأل هل عبر أبو يحيى أم لا؟ فلما بلغ أبا يحيى استحثاثه إياه أسرع إلى العبور وهو لا يشك أن أول ما يرد عليه خبر وفاته فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه وقال: ما تركت أمير المؤمنين إلا هامة اليوم أو غد وليس لها غيري فجعل أشياخ الجزيرة يحيل بعضهم على بعض وأهل بلد على أهل بلد حتى بلغ مرسية وكتبوا بذلك مساطير خوفاً على أنفسهم.

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه وأشار عليه الأطباء بالسفر فخرج قاصداً مدينة فاس يحمل في محفة على بغلين وبلغه أمر أبي يحيى المذكور وجاءته كتب أهل الأندلس والمساطير التي كتبوها.

ولما سمع أبو يحيى بحركته جاء معتذراً إليه حتى عبر البحر فلقيه بمدينة سلا فلما وقعت عينه عليه قال: لمن عنده هذا الشقي قد جاء وأمر به فقيد ووجه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدوا شهاداتهم وأمر به

فاحضر وقال: إنما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما" وأمر به فضربت عنقه تولى قتله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف قتله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف وذلك بمحضر من الناس وأمر به فكفن ودفن وأقبل على القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً وأمر بإخراجهم على أسوأ حال حفاة عراة الرؤوس فخرجوا وكل واحد منهم لا يشك أنه مقتول!.

و لم يزل أمر القرابة من يومئذ في خمول وهلم وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة فكان جملة من قتل يعقوب أخويه وعمه!.

وقعة الأرك

ولما كان في سنة 590 انتقض ما بينه وبين الأدفنش – لعنه الله – من العهد فخرجت خيل الأدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها إلى أن كثر عيثها بالأندلس.

وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور فعبر البحر في جمادى الآخرة من سنة 591 بجموع عظيمة ونزل مدينة أشبيلية فلم يقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجند وقسم الأموال وخرج يقصد بلاد الروم.

وسمع الأدفنش – لعنه الله – بقصده فتجهز هو أيضاً في جموع ضخمة والتقوا بموضع يعرف بفحص الحديد وكان الأدفنش قد جمع جموعاً لم يجتمع له مثلها قط فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم وأمير المؤمنين في ذلك كله لا مستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين.

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة التقى المسلمون وعدوهم فأنزل الله على الموحدين نصره وأفرغ عليهم صبره ومنحهم أكتاف الروم وكانت الدائرة على الأدفنش – لعنه الله – وأصحابه و لم ينج إلا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم منهم الوزير أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر في وزراء أبي يوسف.

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح وقد انجلى عنها أهلها فدخلها وأمر بكنيستها فغيرت مسجداً فصلى فيها المسلمون واستولى على ما حول طليطلة من الحصون ثم رجع إلى مدينة أشبيلية منصوراً مفتوحاً عليه.

وكانت هذه الهزيمة أختا لهزيمة الزلاقة المتقدم ذكرها في مدة يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين.

وأقام أمير المؤمنين بأشبيلية بقية سنة 591 وقصد بلاد الروم في السنة الثانية فنزل على مدينة طليطلة

بعساكره فقطع أشجارها وانتسف معايشها وغور مياهها وأنكى في الروم أشد نكاية.
ثم عاد في السنة الثالثة أيضاً وتوغل بلاد الروم ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ورجع إلى مدينة أشبيلية فأرسل الأدفنش إليه – لعنه الله – يسأله المهادنة فهادنه إلى عشر سنين فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها وقصد مدينة مراكش وذلك في سنة 594.

عزم أبي يوسف على قصد مصر ووفاته

فبلغني عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول نحن إن شاء الله مطهروها و لم يزل هذا عزمه إلى أن مات – رحمه الله – في صدر سنة 595 كما ذكر ودفن بتينمل مع آبائه.

شيء من سيرته

وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل متحرياً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول.
فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس لم يزل على ذلك مستمراً أشهراً إلى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر إبطاء كاد وقتها يفوت وقعد الناس ينتظرونه فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لوماً وتأنيباً وقال: ما أرى صلاتكم إلا لنا وإلا فما منعكم عن أن تقدموا رجلاً منكم فيصلي بكم أليس قد قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتبعون والهداة المهتدون فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة.
وكان يقعد للناس عامة لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم فقضى بينهما وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما وقال: لهما أما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره.
ولما ولي أبا القاسم بن بقي المتقدم الذكر كان فيما أشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا فكان يقعد في موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح.
وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم.

وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاهم وولاهم فإذا أثنوا خيراً قال: أعلموا أنكم مسؤولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن امرؤ منكم إلا حقاً وربما تلا في بعض المجالس "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين" سورة النساء 125.

ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة 592 وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذل الله فيها الأدفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخبر وحملهم إليه فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فإذا نظر إليهم قال: لمن عنده هؤلاء الجند لا هؤلاء! ويشير إلى العسكر فكان في ذلك شبيهاً بما حكي عن قتيبة بن مسلم والي خراسان حين لقي الترك وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع فجعل يكثر السؤال عنه فاخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً إصبعه إلى السماء ينضنض بها فقال: قتيبة لأصبعه تلك أحب إلي من عشرة آلاف سيف.

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة فقبل منهم من رأى القبول ورد من رأى الرد فتساوى عنده رضي الله عنه الفريقان وقال: لكل مذهب و لم يزد هؤلاء ردهم ولا نقص أولئك قبولهم.

وكان كثير الصدقة بلغني أنه تصدق قبل خروجه إلى هذه الغزوة – أعني كانت فيها الوقعة الكبرى – بأربعين ألف دينار خرج منها للعامة نحو من نصفها والباقي في القرابة أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعاً وجعلوا في كل ربع أمناء معهم أموال يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون فيجمعون إلى موضع قريب من قصره فيختنون ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة وربما زاد على المثقال درهمين جديدين هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس.

وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه

من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنياً دفع إليه ماله وترك وسببه و لم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت يقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات – رحمه الله –.

مماليك الغز المصريون في المغرب

وفي أول ولايته إما سنة 83 أو 582 ورد علينا البلاد الغز من مصر وكان فيمن ورد علينا مملوك يسمى قراقش ذكروا أنه كان مملوكاً لتقي الدين ابن أخي الملك الناصر ورجل يسمى شعبان ذكروا أنه من أمراء الغز ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضي عماد الدين في آخرين فاحسن نزلهم وبالغ في تكرمتهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات في كل سنة في كل أربعة أشهر مرة وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل وقال: الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصلة هذا مع أنه أقطع أعيانهم أقطاعاً كأقطاع الموحدين أو أوسع أقطع رجلاً منهم فيما أعرف من أهل إربل يعرف بأحمد الحاجب مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها وأقطع شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل في كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار هذا خارجاً عن جامكيتهم الكثيرة التي ليس لأحد من الأجناد غيرهم مثلها.

و لم يرد المغرب من هذه الطائفة – أعني الغز – ألطف حساً ولا أزكى نفساً ولا أحسن محاضرة ولا أطيب عشرة من شعبان هذا المذكور ما لقيته إلا استنشدني أو أنشدني.

أنشدته يوماً لشاعر من أصحابنا من أهل أشبيلية:

وقائل فيم لم تهجع فقلت له: كيف الهجوع لطرف نافر الوسن

لم تدر أن الكرى الممنوع عن بصري هي السنات التي في مقلتي حسن!

فضحك وقال: لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ورفرف فما طار وأراد غاية فوقع دونها ولله من أثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب

قلت هو أبو الطيب قال: لي نعم هو الطيب أبو الطيب.
وأنشدته يوماً وقد جرى ذكر التجنيس اللفظي فأنشد هو منه وأكثر

إذا صال ذو ود بود صديقه فيأيها الخل المصاحب لي صل بي
فإني مثل الماء ليناً لصاحبي وناهيك للأعداء من رجل صلب

فاستحسنهما وكتبهما عنده وقال: لي – رحمه الله – لك علي بهذين البيتين حق فما وافقني شيء من الشعر في هذا المعنى ولا في غيره ولا وقع مني موقعهما.
وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد وكان يقرض شيئاً من الشعر وربما ندرت له الأبيات الجيدة سألته أن يكتب لي شيئاً من شعره أو ينشدنيه فأبى علي كل الإباء وحلف لا يفعل.

أبو يوسف وعقيدة العامة في ابن تومرت

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تينمل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون فقعدوا تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد وقد كان ابن تومرت قال: لأصحابه فقعدوا تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد وقد كان ابن تومرت قال: لأصحابه فيما قال: لهم ووعدهم به ليبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليوم في تينمل يوماً عظيما اتصل التكبير من كل جهة وجاء النساء يولولن ويضربن بالدفوف ويقلن ما معناه بلسانهم صدق مولانا المهدي نشهد أنه الإمام حقا!.
فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافاً لعقولهن لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت فالله أعلم.
أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة – يعني عصمة ابن تومرت – قال: وقال: لي يوماً وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس أين الإمام؟ أين الإمام؟.
أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس يسمى أبا بكر بن هانئ مشهور البيت هناك لقيته وقد علت سنه فرويت عنه قال: لي لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك وهي التي أوقع فيها بالأدنفش وأصحابه خرجنا نتلقاه فقدمني أهل البلد لتكليمه فرفعت إليه فسألني عن أحوال البلد وأحوال

قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته فلما فرغت من جوابه سألني كيف حالي في نفسي فتشكرت له ودعوت بطول بقائه ثم قال: لي ما قرأت من العلم قلت: قرأت تواليف الإمام أعني ابن تومرت فنظر إلي نظرة المغضب وقال: ما هكذا يقول: الطالب إنما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة ثم بعد هذا قل ما شئت في أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص.

اهتمامه بالتشييد والبناء

وكان عند رجوعه من السفرة التي استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي الروم على ما تقدم أمر أن يبنى له على النهر الأعظم – نهر أشبيلية – حصن وأن تبنى له في ذلك الحصن قصور وقباب جارياً في ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد فإنه كان مهتماً بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها زاد في مدينة مراكش في أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه وسمي ذلك الحصن حصن الفرج.

علي بن حزمون الشاعر

ولما رجع من غزوته العظمى المتقدم ذكرها في سنة جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم وأنشده الشعراء فممن أنشده في ذلك اليوم صديق لي من أهل مرسية اسمه علي بن حزمون أنشده قصيدة في عروض يسمى الخبب كان يقترحه على الشعراء فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان أولها:

حيتك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لفي عرس
أإمام الحق وناصره	وطهرت الأرض من الدنس !
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على	عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
لاقت جموعهمو فغدوا	فرصاً في قبضة مفترس
جاؤوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
خرجوا بطراً ورئاء النا	س ليختلسوا مع مختلس

ومضيت لأمر الله على ... ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلاكله ... بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم ... الربض مع الحرب الضرس
سقيت بنجيعهمو أكم ... وطئوا منهن على دهس
فأولئك حزب الكفر ألا ... إن الكفار لفي نكس
أذوي الصلبان وراءكمو ... خيل الملك الخبر الندس
لو أن البحر تناوله ... جرعاً وطئته على يبس
ولو أن الصم تراجمها ... أضحت كحل المقل النعس

ملأ التوحيد أعنتها ... وأغار بها روح القدس
نهضت فمضت فقضت أملاً ... أنسى عتب الدنيا فنسي
جاست جنبات الكفر فلم ... تترك لهمو ما لم تجس
لم يبق بها مثوى رجل ... إلا وعليه شذى فرس
لحقوا بقرون الشم فلا ... سقيا لطلولهمو الدرس
إن كان نجا أدفنشهمو ... فإلى عيش نكد تعس
نظر الملك الأعلى فرأى ... ملكاً ما بين قنا وقسي
كالصبح توشح رونقه ... كالطور بنور الله كسي
فمضى لم يلو على أحد ... ورمى بالدرع وبالترس
لصليل الهند بمفرقه ... لا يسمع صلصلة الجرس
سهر الموتور وأرقه ... تذكار المنصل والمرس
وبكاء عقائل هاتفة ... كالورق ينحن مع الغلس
برزت وكأن ذوائبها ... أذناب روامحة شمس
ترنو كظباء الرمل على ... وجل لضراغمة شرس
قد كن مها أنس فغدت ... تحت الرايات بلا أنس

إن الأيام قد ازدهرت كالروض يروق لمغترس
وتناسقت الآمال لنا كالثغر تنظم في لعس
وتلألأ نور الحق على الأثر المهدية فأقتبس
أجزيرة أندلس اعتصمي بإمام الأمة واحترسي
أرعاك حراسته ملك جبريل له أحد الحرس
حكمت أسيافك سيدنا في كل مصر الكفر مسي
ومضت في الروم مضاربها وكذلك تفعل في الفرس
لا يخلف ربك موعدة دوخ أقطارهمو ودس

أوردتها على تواليها وإن كان فيها طول لغرابة عروضها وجودة أكثر أبياتها أنشدنيها منشئها المذكور من لفظه ثم أعدتها عليه بلفظي آخر مرة لقيته بمدينة مرسية في سنة 614.

ولعلي بن حزمون هذا قدم في الآداب واتساع في أنواع الشعر ركب طريقة أبي عبد الله ابن حجاج البغدادي سامحه الله وغفر له فأربى فيها عليه وذلك أنه لم يدع موشحة تجري على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا عمل في عروضها ورويها موشحة على الطريقة المذكورة وله مع هذا في الهجاء يد لا تطاول غير أنه يفحش في كثير منه فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع أبيات ركب فيها طريقه الحطيئة ابتدأ يهجو نفسه ثم استطرد يهجو رجلاً من أعيان قواد الأندلس يقال له محمد بن عيسى مشهور النجدة عندهم.والأبيات:

تأملت في المرآة وجهي فخلته كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو
كأن على الأزرار مني عورة تنادي الورى غضوا ولا تنظروا نحوي
فلو كنت مما تنبت الأرض لم أكن من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو
وأقبح من مرآي بطني فإنه يقرقر مثل الرعد قرقر في الجو
وإلا كقلب بين جنبي محمد سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو
يود بأن لو كان في بطن أمه جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو
ثقيل ولكن عقله مثل ريشة تطير بها الأرواح في مهمة دوي
تميل بشدقيه إلى الأرض لحية تظن بها ماء يفرغ من دلو
وقد حدثوا عنه بكل نقيصة ولكن مثلي لا يروي ولا يروي

وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً إلا أنه أقذع فيه فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عني.

ونال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة كل ذلك خوفاً من لسانه وحذراً من هجائه ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلداً إلا وأهاجي هذا الرجل تحفظ فيه وتدرس أسأل الله له المسامحة ولجميع إخواننا من المسلمين.

محمد بن عبد ربه الكاتب

حفيد صاحب العقد

وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم في السلاح التام فلما انتشروا بين يديه وأعجبه ما رأى من حسن هيأهم قام فصلى ركعتين شكراً لله عز وجل واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابة فأمطرت مطراً جوداً حتى ابتل الناس فقال: في ذلك صديق لي من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أصله من الجزيرة الخضراء كان يكتب لأبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان مختصاً به:

بادي الكرامة بل بادي الكرامات	قد شفع الله آيات بآيات
يا ليت شعري ما شيء دعوت به	قبل السلام ومن بعد التحيات؟
شيء تأثر عنه الجو فاتصلت	من السحائب رايات برايات
من كل وطفاء لفاء الرباب همت	ماء نقياً على زغف تقيات
قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد	تفتحت لك أبواب السماوات

فاشتهر من يومئذ أو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبه قدره وله إحسان كثير وقدم راسخة في صناعتي النظم والنثر مع تحقق بشيء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق أنشدني – رحمه الله – من شعره:

قف بالقباب وأين ذاك الموقف	واسألهم بمأمهم أن يعطفوا
وأنشد فؤادك إن عرفت مكانه	بين القباب وما أخالك تعرف
عند التي رمت الجمار غدية	وبنانها بدم القلوب مطرف
نفس الفداء لها وإن لم تبق لي	نفساً تذكرني بها وتعرف

وهي قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد منها على خاطري سوى ما أوردته.

وأنشدته – رحمه الله – يوماً ونحن في قبة على شاطئ نهر وقد أخذ المطر في الانسكاب بيتين أحفظهما لشاعر قديم:

حاكت يمين الرياح محكمة | في نهر واضح الأسارير
فكلما ضعفت به حلقاً | قام لها القطر بالمسامير

فاستحسنهما وقال: لي ذكرتني هذا المعنى وأنشدني فيه لنفسه أبياتاً ما سمعت بمثلها هذا على إكثار الناس في هذا المعنى وتواردهم عليه حتى صار أخلق من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع فلا يتخلص منه إلا من لطف حسه وجاد طبعه وحسن ميزه والأبيات:

بين الرياض وبين الجو معترك | بيض من البرق أو سمر من السمر
إن أوترت قوسها كف السماء رمت | نبلاً من الماء في زغف من الغدر
لأجل ذاك إذا هبت طلائعها | تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

فانظر – حفظك الله – إلى حسن توطئته لهذا المعنى وقوة تخلصه إلى هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق.

واستأذنت عليه يوماً وهو في مجلس له فلم ير – رحمه الله – أن يحجبني فاسترفع ما كان لديه وأذن لي فدخلت فتلقاني أحسن لقاء وأخذ يحدثني وفهمت أنه مستحي خجل إذ عرف أني تفطنت لبعض الأمر فأنشدته رافعاً عنه كلفة الخجل لبعض الشعراء:

أدرها فما التحريم فيها لذاتها | ولكن لأسباب تضمنها السكر
إذا لم يكن سكر يزل به الفتى | فسيان ماء في الزجاجة أو خمر !

فطرب – نضر الله وجهه – وعاوده أنسه وانبسط ثم سكت عني ساعة واستدعى الدواه وكتب بديها في قريب من المعنى الذي أنشدته فيه:

ما ضرت الخمر لولا الشرع يشربها | قوم حديثهم و همس التسابيح
ليسوا برعش إذا أدوا فروضهم و | عند القيام ولا ميل مراجيح
بيت كبيت وفيه شادن سدن | مزج الكؤوس به وقد المصابيح

وأنشدني بعد هذا لنفسه في هذا المجلس من قديم شعره مقطوعة سينية لم أسمع بأحسن منها لم يبق على خاطري منها سوى آخر بيت فيها وهو:

ولكن قوماً لا يغيب نهارهم إذا غربت شمس يديرونها شمسا

وله – رحمه الله – رحلة إلى مصر لقي فيها ابن سناء الملك وأخذ عنه من شعره وهو أول من سمعت يذكره عندنا وتروي شعره.

ولأبي عبد الله هذا اتساع في صناعة الشعر إلا أنه نحل كثيراً من شعره السيد الأجل أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له و لم يدع بعد ذلك في شيء مما نحله إياه من شعره ولا ذكر أنه له فكان أكثر شعره ينشد لأبي الربيع وترويه الرواة له عرفت ذلك بعد مفارقته إياه لأني فقدت شعر السيد أبي الربيع واختلف علي كلامه ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جداً فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه!.

وأخبرني ابن عبد ربه هذا قال: دخلت على السيد أبي الربيع وهو في قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صغار في أعلاها فلما رأيت ذلك المنظر أعجبني وقلت بديهاً:

لما رأته الشمس يفعل فعلها في العالمين مقاسماً ومساهما

خافت توالى الجود ينفد ماله نثرت عليه دنانراً ودراهما!

فحذف الياء من دنانير وهذا جائز كما قال الأول:

تضل به أمناً وفيه العصافر

أبو جعفر الحميري المؤدب

ومما يتعلق بأخبار أبي يوسف – رحمه الله – ما أخبرني شيخي وأستاذي أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميري – رحمه الله – أيام قراءتي عليه بقرطبة سنة 606 وذلك أنا بلغنا عليه في الحماسة إلى مقطوعة ابن زيابة التيمي التي أولها:

يا لهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

فلما انتهينا منها إلى قوله:

والله لو لاقيته خالياً لآب سيفانا مع الغالب !

قال لنا: أحدثكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف – رحمه الله – لما فصل عن قرطبة متوجهاً إلى لقاء الأدفنش – لعنه الله – قال: لي ولدي عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين

يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين! فقلت: يا بني لئن صدقت رؤياك هذه ليهزمن الأدفنش – لعنه الله – وخطر لي هذا البيت:

والله لو لاقيته خالياً	لآب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير.

وأبو جعفر هذا المذكور آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروي لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه رضي الله عنه وجازاه عنا خيراً أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم قال: لي ولده عصام – وقد رأيت – عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت علي أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت: له لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت في نقلها فقال: لي ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل أصح من الأصل الذي كتبت منه فقلت: له أين وجدته؟ قال: هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا – وكنا في المسجد في زاوية – فقلت: له أين هو؟ فقال: لي عن يمينك فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت: ما على يميني إلا الأستاذ! فقال: لي هو أصلي وبإملائه كتبت كان يملي علي من حفظه! فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثناً فالتفت إلينا وقال: فيم أنتما؟ فأخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال: بعيداً أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي! والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً!.

توفي أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة 610 وقد كملت له ست وتسعون سنة فلم يبق في الأندلس أعلى رواية منه في كل ما يروى و لم أر قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعلل هذه الصناعة – أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق كنت أنشده من شعري – على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتاً لا أعدها شيئاً يحملني على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك مني فيلهج بها ويشتد استحسانه لها وربما درسها فحفظها.

أنشدته يوماً – وقد استدعى مني ذلك على عادته – بيتين ارتجلتهما في شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة – رحمه الله – مع حسن رائع وظرف ناصع كان اسمه فتحاً وهما:

يا من له عن كناس	من المتيم قلبه
ما أنت كاسمك فتح	وإنما أنت قلبه

فطرب والتفت إلى ابنه وقال: له هذا والله الشعر لا ما تصدعني به طول نهارك إن كنت تقول مثل هذا

وإلا فاسكت! فلما كان من الغد قال: لي – رحمه الله – أعلمت ما صنع عصام أمس؟ قلت: لا قال: كان كما قالوا في المثل سكت ألفاً لم يزل أمس يعمل فكرته فبعد الجهد الشديد أخذ معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملة فقال:

سبى فؤادي خشف	فقوتي اليوم ضعف
سموه فتحاً مجازاً	وفي الحقيقة حتف

ما زاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة فقلت: أنا هذا والله أحسن من شعري فتغير لي وقال: يا بني دع عنك هذه العادة فإن اسوأ ما تخلق به الإنسان الملق وتزيين الباطل سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء وإلا فقد اختل ميزك وساء اختيارك وما أظن هذا هكذا.

وسمعته من شدة إنصافه – رحمه الله – يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبنا علي بن خروف – رحمه الله – وذلك أن الأستاذ – رحمه الله – وعفا عنه – كان يلقب بالوزغي وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب بالغرنوق – وهو اسم عندهم للكركي والفصيح فيه غرنيق فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب وذلك خلق قد أعاذه الله منه ونزهه بفضله عنه فقال: ابن خروف في ذلك سامحه الله:

أحقا سام أبرص ما سمعنا	بأنك قد تعشقت ابن ماء
وكيف وأنت في الحيطان تمشي	وذاك يطير في جو السماء؟!

فأبعده الاستاذ – رحمه الله – وأنهى خبره إلى القاضي أبي الوليد بن رشد فأوجعه ضرباً وامتنع الأستاذ من قراءته عليه فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه وأبعده عن مريع جنابه وولاه الأستاذ خطته وألقى حبله على غاربه فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم وإنما كان يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة.

وقد امتد بنا عنان القول إلى ما لا حاجة لنا بأكثره رغبة في تنشيط الطالب وإيثاراً للأحماض ولنرجع الآن إلى ما قطعنا.

اليهود في عهد أبي يوسف

وفي آخر ايام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب و لم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبي عبد الله إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة

واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا – وهو سنة 621 – وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به شكه في إسلامهم وكان يقول: لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ولكني متردد في أمرهم.

و لم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسلتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم.

محنة أبي الوليد بن رشد

وفي أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المتقدم الذكر محنة شديدة وكان لها سببان جلي وخفي فأما سببها الخفي وهو أكبر أسبابها فإن الحكيم أبا الوليد – رحمه الله – أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطوطاليس صاحب كتاب المنطق فهذبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به فقال: في هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأي أرض تنشأ وقد رأيتها عند ملك البربر جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق فكان هذا مما أحنقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك وفي الجملة فإنها كانت من أبي الوليد غفلة فقد قال: القائل رحم الله من عرف زمانه فمانه وميز مكانه فكانه! وما أحسن ما قال الأول:

وأنزلني طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت الذي لا أشاكله

فحامقته حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما في النفوس ثم إن قوماً ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة في البيت وشرف السلف سعوا به عند أبي يوسف ووجدوا إلى ذلك طريقاً بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة فلما حضر أبو الوليد – رحمه الله – قال: له بعد أن نبذ إليه الأوراق أخطك

هذا؟ فأنكر فقال: أمير المؤمنين لعن الله كاتب هذا الخط! وأمر الحاضرين بلعنه ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وبإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها.

ثم لما رجع إلى مراكش نزع عن ذلك كله وجنح إلى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد - رحمه الله - إلى مراكش فمرض بها مرضه الذي مات منه - رحمه الله - وكانت وفاته بها في آخر سنة 594 وقد ناهز الثمانين - رحمه الله -.

ثم توفي أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير وكانت وفاته - كما ذكرنا - في غرة صفر الكائن في سنة 595.

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمه أم ولد اسمها زهر رومية بويع له بعهد أبيه إليه في سنة 595 بعد وفاة أبيه وقد كان أبوه أمر ببيعته في سنة 86 وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهراً وكان مولده في آخر سنة 86 ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفاً بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر في التاريخ المذكور وسنه يوم بويع له البيعة الكبرى العامة سبع عشرة سنة وأشهر وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة 610 فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهراً.

صفاته

أبيض أشقر شعر اللحية أشهل العينين أسيل الخدين حسن القامة كثير الإطراق شديد الصمت بعيد الغور - كان أكبر أسباب صمته لثفاً كان بلسانه - حليماً شجاعاً عفيفاً عن الدماء قليل الخوض فيما لا يعنيه جداً إلا أنه كان يبخل أولاده.

أولاده

كان قليل الولد جداً لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولي عهده ويحيى وإسحاق توفي يحيى في حياته بأشبيلية سنة 608 وبلغني عن جماعة من الحشم أنه كان رشح يحيى هذا لولاية العهد وله بنات.

وزراؤه

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان وزير أبيه.
ثم عزله بعد مدة يسيرة وولي بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبي يوسف.

صلة المؤلف بإبراهيم بن أبي يوسف

وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطراح الهوى لا أعلم فيهم أنجب منه كان لي – رحمه الله – محباً وبي حفياً وصلت إلي منه أموال وخلع جمة غير مرة لم أعرفه أيام وزارته لأني كنت إذ ذاك حديث السن جداً كما ناهزت الاحتلام وإنما كان معرفتي إياه حين ولوه أشبيلية في سنة من جهة رجل من أصحابنا من الكتاب اسمه محمد بن الفضل جازاه الله عني خيراً هو الذي أوصلني إليه أنشدته أول يوم لقيته قصيدة مدحته بها أولها:

لكمو على هذا الورى التقديم ... وعليهمو التفويض والتسليم
الله أعلاكم وأعلى أمره ... بكمو وأنف الحاسدين رغيم
أحييتموا المنصور فهو كأنه ... لم تفتقده معالم وعلوم
ومحابر ومنابر ومحارب ... وحمى يحاط وأرمل ويتيم

إلى أن أقول فيها في ذكر ولايته أشبيلية:

فكأنما حمص جمالاً سارة ... وكأن إبراهيم إبراهيم
وأرى طليطلة كهاجر إثرها ... سيزفها الأدفنش وهو ذميم

أقول فيها:

يذر الصليب صغيره وكبيره ... فيها جذاذاً والعلوج جثوم
ويحرق الأعداء فيما أضرمت ... ويجوب نار الحرب وهي جحيم

لم يبق على خاطري منها لتقادم عهدها وقلة اعتنائي بها سوى هذه الأبيات التي أوردتها فاستحسنها – رحمه الله – وبالغ في الثناء عليها تفضلاً منه وسؤدداً وجرياً على سنن الأجواد هذا مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تكلفها.

ثم علت حالي عنده بعد ذلك – نصر الله وجهه – إلى أن كان يقول: لي في أكثر الأوقات والله إني لأشتاقك إذا غبت عني أشد الشوق وأصدقه ثم لم تزل حالي معه على هذا إلى أن فارقته – رحمة الله عليه – وهو وال على أشبيلية ولايته الثانية.

وكان توديعي إياه قدس الله روحه آخر يوم من ذي الحجة سنة 613 ثم اتصلت بي وفاته وأنا بصعيد مصر سنة 617.

لم أر في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر كان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية.

ثم عزله أبو عبد الله وولى بعده أبا عبد الله محمد بن علي بن أبي عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه وكناه أبا يحيى فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة وكان يحضه على فعل الخير بجهده ونشر العدل حسب طاقته والإحسان إلى الرعية والأجناد رأى الناس في أيام وزارته من الخصب وسعة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذي رأوا في أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه.

ثم عزله وولي بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع.

أولية الوزير أبي سعيد بن جامع

كان إبراهيم بن جامع جد هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت صحبه من مراكش وكان اصله من الأندلس آباؤه من أهل مدينة طليطلة ونشأ هو – أعني إبراهيم – بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم بضيعة تسمى روطة وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة في كل سنة ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة وكان يحاول صنعة النحاس فتعرف بابن تومرت فكان من أصحابه فهو معدود فيهم وولد له أولاد نالوا في الدولة حظوة وجاهاً متسعاً فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وقد تقدم ذكره وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر اسمه عبد الله كان يتولى في إمارة أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتها وزيادة على ذلك ولاية الأسطول في جميع بلادهم فلم يزل كذلك إلى أن مات أظن أمير المؤمنين أبا يعقوب قتله! – وترك من الولد يوسف والحسين وعثمان الوزير هذا المذكور ويحيى وبنات.

فاستمرت وزارة أبي سعيد هذا إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ووزر بعده لابنه أبي يعقوب إلى حين ارتحلت من البلاد – وهو سنة 614 – ثم اتصل بي في شهور سنة 617 أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتي ذكره بعد هذا إن شاء الله عز وجل.

حجابه

ريحان الخصي – ويدعى ريحان بينك – حجبه ريحان هذا إلى أن مات.
ثم حجبه بعده مبشر الخصي يدعى مبشر ولدي فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله رحمه الله.

كتابه

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر في كتاب أبيه.
وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه في كتاب عبد المؤمن وأبي يعقوب.
وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازي ذكره الله فيمن عنده وقرب مطالعتي تلك الغرة الميمونة وسماعي تلك الألفاظ الحلوة واستمتاعي بتلك الشمائل الشريفة فما أشد شوقي إلى تقبيل يديه!.
هؤلاء كتبة الإنشاء وكتاب الجيش أبو الحجاج يوسف المراني بتخفيف الراء وضم الميم من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس.
ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا وهو سنة 621.

قضاته

أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقي قاضي أبيه.
ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذي كان أبوه قد عزله فلم يزل قاضياً إلى أن مات.

وولى بعده رجلاً من أهل مدينة فاس اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر يدعى أنه من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف لم يزل هذا دأبه ولا برح معروفاً به وكان له مع هذا حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشيء من الخلاف اتصل بأمير المؤمنين أبي يوسف شهور سنة 587 فحظي عنده وكانت له منه منزلة سمعت أبا عبد الله الحسيني هذا يقول: وأنا عنده في بيته جملة ما وصل إلي من أمير المؤمنين أبي يوسف منذ عرفته إلى أن مات تسعة عشر ألف دينار خارجاً عن الخلع والمراكب والأقطاع.
لم يزل أبو عبد الله هذا قاضياً إلى أن مات بالأندلس في شهور سنة 608 وكانت ولايته في شهور سنة 601.
ثم ولي بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران كان أبوه من قضاة أبي يعقوب فاستمرت ولاية أبي عمران هذا إلى هذا الوقت – وهو سنة 621 – لم يبلغني عزله ولا وفاته وأبو عمران هذا لي صديق لم

أر صديقاً لم تغيره الولاية غيره و لم يزل يعاملني بما كان يعاملني به قبل ذلك لم ينقصني شيئاً من بره ما لقيته قط في مركبه إلا سلم علي مبتدئاً وجدد لي براً جزاه الله عني أفضل الجزاء وعم بذلك سائر إخواني!.

أعمال أبي عبد الله بن أبي يوسف

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا وكان الذي تولاها وقام بأمرها من القرابة أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن وهو الذي قام ببيعة أبيه ومن الموحدين أبو زيد عبد الرحمن بن موسى وزير أبيه وأبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص وهو الذي ولاه محمد بعد هذا أمر إفريقية كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى إفريقية وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية المتقدم الذكر كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل الموحدون عنه بغزو الروم فأول جيش جهز أبو عبد الله من الموحدين الجيش الذي استعمل عليه السيد أبا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن لم أر لهم جيشاً أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا أحسن عدة وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافرة فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والميرقيون فيما بين بجاية وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة.
وجهز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله وأمر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينة المغرب.

دخول الموحدين جزيرة ميورقة

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله على إفريقية وأعمالها السيد الأجل أبا زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن وخرج هو في سنة 597 إلى تينمل لزيارة قبر أبيه أبي يوسف وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ثم رجع إلى مراكش وأقام إلى أول سنة 609 فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها واشاع أنه يقصد إفريقية – هذا بعد أن بلغه أن الميرقي استولى على مدينة تونس وقبض على الوالي عليها عبد الرحمن – فأقام بفارس ثلاثة أشهر وأياماً وبدا له أن يبعث بعثاً إلى جزيرة ميرقة ليستأصل شأفة بني غانية ويقطع دابرهم فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال واستعمل على الأسطول عمه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن وعلى الجيش أبا سعيد عثمان بن أبي حفص من أشياخ الموحدين فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عنوة وقتلا عبد الله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها وكان الذي قتله رجل من الأكراد يقال له عمر المقدم وذلك أنه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران فكبت

به فرسه فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات وقيل إنه قتله بسيف نفسه.
وكان دخولهما ميرقة وقتلهما أميرها المذكور في شهر ذي الحجة من سنة 599 فانتهبا أمواله وسبيا حرمه ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال في هيئة الأسارى فأما النساء فدخل بهن ليلاً فجعلن في بعض الخانات إلى أن نفذ الأمر بالمن عليهن وإطلاقهن وتزويج من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزها بمال وأما الرجال فلم يزالوا في الحبس إلى أن من عليهم بعد أن ضمنهم أكابرهم واتخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم.
وبلغني أن المتولين لفتحها انتهبوا منها أموالاً عظيمة وذخائر نفيسة.
ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله إلى مراكش وبها اتصل به خبر فتح ميرقة وكان رجوعه إلى مراكش في ذي القعدة من السنة المذكورة.

عبد الرحمن الجزولي الثائر

وقد كان قبل هذا في سنة 597 قام بسوس رجل من جزولة اسمه عبد الرحمن يعرف عندهم بما معناه بلسانهم ابن الجزارة فدعا إلى نفسه واجتمع إليه خلق كثير واشتد خوف الموحدين منه فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر وفي كل ذلك يهزمهم إلى أن بعثوا بعثاً من الموحدين والغز وأصناف الجند بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التي كان فيها وقالوا إنما يقوى هذا الرجل بتغافلكم عنه ومسامحتكم إياه ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحداً فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمية والتقوا هم وأصحاب عبد الرحمن المذكور وكان يدعى أبا قصبة فأسلمته جموعه وقتل وسير برأسه إلى مراكش فكتب إلي بعض إخواني وهو إذ ذاك صبي صغير كان مع أبيه بسوس وكان أبوه من العمال من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية يخبرني بهذا الفتح قبل وصوله إلي من جهة كتاب الموحدين المتولين له رسالة أولها: كتب من مترل سوس وقد تبلج فجر الفتح فأسفر وقال: فريق الضلال وشيعته أين المفر وقد ألقى النصر جرانه وأعز الله حزبه المؤيد وأعوانه وشرح الحال على غاية الإيجاز لأجل الاستعجال في إنهاء هذه البشائر والانحفاز أن الناكثين النابذين للعروة الوثقى المتمسكين بالسبب الأشقى حاصرهم الموحدون أنجدهم الله أشد الحصار وقطعوا عنهم مواد المعايش وزرافات الأنصار ولسان التأييد يتلو علينا بالعشي والإشراق ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ولحين ما أخذ الموحدون أنجدهم الله في حسم دائهم العضال وجردوا لهم من عزماتهم الصادقة ما هو أمضى من النصال طاحوا مجدلين بالحضيض وملأ جثمانهم الفضاء العريض وخيب الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم وصيرهم إلى أمهم الهاوية فكانت أولى بهم

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم وأمكن الله من رأس ضلالهم المدعو بأبي قصبة فقهره الحزب المنصور وغلبه وحز الحسام منه قنة ورقبة.

إنما أوردت هذه الرسالة ها هنا لغرابة شأن من وردت علي منه وذلك أنه كان حين كتب بها إلي لم يحتلم بعد!.

فتح جزيرة منرقة

ومع اتصال هذا الفتح بهم اتصل معه فتح جزيرة منرقة كان فيها من أصحاب ابن غانية رجل اسمه الزبير بن نجاح دخلوها عليه فقتلوه ووجهوا برأسه إلى مراكش فهو معلق بها مع رأس أبي قصبة المذكور.

محاربة يحيى بن غانية بأفريقية

ولما كانت سنة 601 تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد إفريقية وقد كان الميرقي يحيى بن غانية قد استولى عليها خلا قسطنطينة وبجاية هيأ له ذلك غفلة الموحدين عنه واشتغال أمير المؤمنين أبي يوسف بغزو الروم بالأندلس على ما قدمناه فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد إفريقية فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية ومهدية بني عبيد فإنه اقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها أوجب ذلك ما قدمنا من شدة منعتها – وكان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لحاً أبا الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن غانية – فلما طال عليه الحصار سلم البلد وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ثم بدا له أن يرجع إلى الموحدين فأرسل إليهم فتلقوه أحسن لقاء ووصلوه من الصلات النفيسة بما لا قيمة له ولا يصل بمثله إلا الخلفاء وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيى بن غانية سير بن إسحاق بن محمد فأكرموا نزله واقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملؤوا يديه أموالاً.

و لم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقيماً بأفريقية يصلح ما أفسده ابن غانية إلى أن تم له ما أراد من ذلك وبلغني أن جملة ما أنفق في هذه السفرة مائة وعشرون حملاً ذهباً.

ثم رجع إلى مراكش دار الملك بعد أن ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها من رامها واستعمل عليها من أشياخ الموحدين أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر إينتي فأقام بمراكش.

انتقاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة

وكان رجوعه إليها في شهور سنة 604 فأقام بها كما ذكر إلى أول سنة 607 فانتقض ما بينه وبين الأدفنش – لعنه الله – من المهادنة وبدا له أن يقصد بلاد الروم للغزو فخرج بالجيوش حتى عبر البحر وكان عبوره في شهر ذي القعدة من سنة 7 المذكورة فسار حتى نزل أشبيلية على عادة من سلف قبله فأقام بها بقية السنة المذكورة.

فتح شلبتره

وتحرك في أول سنة 608 فقصد بلاد الروم فترل على قلعة عظيمة لهم في غاية المنعة تدعى شلبترة معناه بلسان العرب الأرض البيضاء إلا أن فيه تقديماً وتأخيراً كما جرت العادة في لسان العجم ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياماً يسيرة ثم تركها شفقة على المسلمين وخوفاً عليهم فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرعب وخرج الأدفنش – لعنه الله – إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنوني – لعنه الله –.

أشهر الإمارات الأسبانية في ذلك العهد

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربع أربعة ملوك من الروم: إحدى جهات تسمى أرغون – وهي التي ذكرنا – وهي شرقي الجزيرة مما يقابل الجنوب منها.

والجهة الأخرى – وهي المملكة الكبرى – بلاد تسمى بلاد قشتال يملكها الأدفنش – لعنه الله – وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال أميل إلى الجنوب قليلاً.

والجهة الأخرى تسمى ليون فهو أول الحد الشمالي المغربي يملكها رجل يدعى بالببوج ومعنى هذا الاسم بالعربية: الكثير اللعاب!.

والجهة الأخرى في الشمال مما يلي البحر الأعظم بحر أقيانس يملكها رجل يعرف بابن الريق وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب.

والجزيرة بأسرها أعني جزيرة الأندلس تسمى في قديم الدهر عند الروم جزيرة أشبانية.

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى أشبيلية استنفر الناس من أقاصي البلاد فاجتمعت له جموع كثيفة وخرج من أشبيلية في أول سنة 609 فسار حتى نزل مدينة جيان فأقام

بها ينظر في أمره ويعبئ عساكره وخرج الأدفنش – لعنه الله – من مدينة طليطلة في جموع ضخمة حتى نزل على قلعة رباح وهي كانت للمسلمين افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم فرجع عن الأدفنش – لعنه الله – بهذا السبب من الروم جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة وقالوا إنما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين! مالنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه!.

وقعة العقاب وهزيمة المسلمين

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيان فالتقى هو والأدفنش بموضع يعرف بالعقاب بالقرب من حصن يدعى حصن سالم فعبأ الأدفنش جيوشه ورتب أصحابه ودهم المسلمين وهم على غير أهبة فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير.

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر لا يخل ذلك من أمرهم فأبطأ في مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء وخصوصاً في هذه السفرة فنسبوا ذلك إلى الوزراء وخرجوا وهم كارهون فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلموا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك وثبت أبو عبد الله هذا في ذلك اليوم ثباتاً لم ير لملك قبله ولولا ثباته هذا لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسراً!.

ثم رجع من هذا الوجه إلى أشبيلية واقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ثم عبر البحر قاصدا مدينة مراكش.

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين يوم الاثنين منتصف صفر الكائن في سنة 609.

وفصل الأدفنش – لعنه الله – عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدي أصحابه أموالاً وأمتعة من متاع المسلمين فقصد مدينتي بياسة وأبذة فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية فحرق أدؤرها وخرب مسجدها الأعظم ونزل على أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان بما ملؤوا به بلاد الروم قاطبة فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة!.

وفاة الناصر محمد

و لم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيما بمراكش بقية سنة 659 وأشهراً من سنة إلى أن توفي في شهر شعبان كما قدمنا واختلف علينا في سبب وفاته فأصح ما بلغني أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء وأشار عليه الاطباء بالفصد فأبى ذلك وتوفي يوم الاربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ودفن يوم الخميس صلى عليه خاصة الحشم!.

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمه أم ولد رومية اسمها قمر تلقب حكيمة كانت ولادته في صدر شوال من سنة 594 قبل وفاة جد أبي يوسف بأربعة أشهر.

بويع له وسنه يومئذ ست عشرة سنة لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ثم اتصل بي في شهور سنة 621 أن يوسف هذا توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذي القعدة سنة فكانت مدة ولايته من يوم بويع له وذلك لأحد عشر يوماً خلت من شعبان من سنة 610 إلى أن توفي كما ذكر في التاريخ المذكور عشرة أعوام وشهرين.

صفته

كان صافي السمرة مستدير الوجه شديد الكحل يشبهونه بجده أبي يوسف في أكثر خلقه وخلقه.

وزراؤه

أبو سعيد – المتقدم الذكر – وزير أبيه استمرت وزارته إلى آخر سنة 615.

ثم عزله وولي بعده رجلاً اسمه زكريا بن يحيى بن أبي إبراهيم إسماعيل الهزرجي صاحب ابن تومرت والمقتول في حياة عبد المؤمن كما تقدم.

أم هذا الوزير هي بنت أبي يوسف المنصور فهو وزيره إلى أن توفي كما ذكر.

حجابه

مبشر الخصي حاجب أبيه.

ثم حجبه بعده فارح الخصي يكنى أبا السرور فلم يزل حاجباً له إلى أن توفي كما قيل.

قاضيه

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له إلى أن توفي كما قيل.

كتابه

أبو عبد الله بن عياش كاتب أبيه وجده.

وأبو الحسن بن عياش.

ثم اتصلت بي وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية في شهور سنة 619 وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازي المتقدم الذكر في كتاب أمير المؤمنين أبي عبد الله وكان قاضياً بمدينة مرسية من شرقي الأندلس وبها فارقته فأعادوه إلى الكتابة كما كان.

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم وقد تقدم ذكره في كتاب ثلاثة أمراء منهم.

وكاتب الجيش أحمد بن منيع لم يتغير.

بيعته

بويع لأبي يعقوب هذا يوم دفن أبيه لا أدري أبعهد أبيه إليه أم لا لأني أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه في آخر أيامه لما كان يسمع من سوء أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن عم جده الذي دخل عليه الميرقيون بجاية وهو آخر من بقي من ولد عبد المؤمن لصلبه لم تبلغني وفاته إلى وقتنا هذا وأبو زكريا يحيى بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ومن الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتي كان أبوه أول وزير وزر لأبي يوسف وقد ذكر وأبو علي عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقي وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سلميان من أهل تينمل.

وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة وفي يوم السبت أذن للناس عامة شهدت ذلك اليوم وأبو عبد الله ابن عياش الكاتب قائم يقول للناس: تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله من السمع والطاعة في المبسط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين هذا ماله عليكم ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته وأن يعجل لكم عطاءكم وألا يحتجب دونكم أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قلد من أموركم.

يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة ثم اتصلت رفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر.

6

فاطمي من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش

ولأربعة أشهر من ولايته قبض على رجل كان قد ثار عليهم يدعي أنه من بني عبيد ويقول إنه ولد العاضد لصلبه اسمه عبد الرحمن.

كان قد ورد البلاد في حياة أبي يوسف أيام كونه بأشبيلية ورام الاجتماع به فلم يأذن له وأقام بالبلاد مطرحاً إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله في شهور سنة فلم يزل في الحبس إلى أن كانت سنة 596 وتحرك أمير المؤمنين إلى إفريقية شفع له فيه أبو زكريا يحيى بن أبي إبراهيم الهزرجي فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك في أمر يكرهونه فلم يقم هذا العبيدي بمراكش إلا أياماً يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبي عبد الله ثم خرج وقصد بلاد صنهاجة فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت حسن الهيئة لقيته مرتين فلم أر في أكثر من شهدته من المشبهين بالصالحين مثله في الآداب الظاهرة من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها مع الرياضة المفرطة ثم قصد مدينة سجلماسة في حياة أمير المؤمنين أبي عبد الله بجيش عظيم فخرج إليه متوليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن فهزمه العبيدي المذكور وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عود و لم يزل ينتقل في قبائل البربر من موضع إلى موضع وفي ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يرجع إليه إلى أن قبض عليه بظاهر مدينة فاس لم يبلغني تفصيل قضية القبض عليه وكتب إلى أمير المؤمنين متولي فاس أبو إبراهيم إسحاق بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده في سجنه فكتب إليه يأمره بقتله وصلبه فضربت عنقه وصلب جسده ووجه برأسه إلى مراكش فهو معلق هناك مع عدة رؤوس من الثوار والمتغلبين.

و لم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آبائه ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله خلا أني رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملئ قلبه منه رعباً لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظه لقيته وجلست بين يديه خالياً به وذلك في غرة سنة 611 فرأيت – من حدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن

جزئيات لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملوك – ما قضيت منه العجب وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع.

ثائران آخران على أبي يعقوب الثاني

وثار في أيام يوسف هذا – بعد قتل العبيدي – رجلان أحدهما ببلاد جزولة من سوس كان يدعى بالفاطمي قتل وجيء برأسه إلى مراكش في شهور سنة 612 وأنا يومئذ بجزيرة الأندلس لم يبلغني تفصيل أمره لبعدي عن الحضرة غير أني رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله والآخر من صنهاجة قتل في سنة 618 بعد ان أثر آثاراً قبيحة فيما بلغني وهزم بعوثاً عدة واستفسد خلقاً كثيراً بلغني هذا كله وأنا بالبلاد المصرية في التاريخ المتقدم وكان الذي تولى قتل هذا الرجل والإراحة منه وحسم الخلاف الواقع بسببه السيد الأجل أبا محمد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن بن علي وهو يومئذ وال على مدينة سجلماسة وأعمالها.

وفاة أبي يعقوب الثاني

ثم اتصل بي في هذه السنة – وهي سنة 621 – أن أبا يعقوب أمير المؤمنين توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذي القعدة من سنة 620 و لم يبلغني كيفية وفاته فاضطرب الأمر واشرأب الناس للخلاف.

ولاية أبي محمد عبد العزيز بن أبي يعقوب الأول

ثم ذكر لي أن عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبي محمد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي رحمهما الله ونضر وجوههما وجزاهما خيراً عن صلاحهما وإصلاحهما!.

وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبي يعقوب أمه حرة اسمها مريم صنهاجية من أهل قلعة بني حماد تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب في حياة أبيه وكانت سبيت هي وأمها ملكة فيمن سبوا من أهل القلعة فأعتقهما أبو محمد عبد المؤمن وزوج مريم هذه لابنه أبي يعقوب فولدت له ثمانية من الولد أربعة ذكور وأربع بنات فالذكور هم إبراهيم وموسى وإدريس وعبد العزيز هذا المذكور هو أصغرهم توفي موسى بظاهر مدينة تاهرت قتله العرب أصحاب الميرقي في شهور سنة 605 وتوفي إبراهيم منهم بأشبيلية وأنا بها في شهور سنة 612 وتوفي أبو العلاء إدريس منهم بأفريقية كما سيأتي والبنات هن زينب ورقية وعائشة وعلية.

لم يتول أبو محمد عبد العزيز هذا شيئاً من أمرهم في حياة أبيه لا في حياة أخيه أبي يوسف فلما ولي أبو عبد الله الأمر ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس وذلك في شهور سنة 598 ثم عزله عنها في شهور سنة 603 وولاه أمر قبيلة هسكورة وهي ولاية ضخمة فلم يزل والياً عليها إلى أن عزله عنها وولاه أمر سجلماسة فلم يزل والياً عليها بقية مدتة ومدة ابنه أبي يعقوب إلى أن قتل هذا الثائر المتقدم الذكر في ولاية أبي يعقوب بن أبي عبد الله فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة أشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر إفريقية فلم يزل أبو العلاء إدريس والياً بأفريقية إلى أن مات بها في رمضان من سنة 620 على ما بلغني رحمة الله عليه.

فهذه جملة أخبار هذا الرجل أبي محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لأمرهم كما قالوا ولئن كان ما قالوا حقاً وتم هذا الأمر له ليملأنها خيراً وعدلاً ولتزكون الأرض وتخرج بركاتها ولترسلن السماء مدرارها بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميد سريرته هذا إذا ساعده الدهر وقيض الله له أعواناً صالحين فإنه - ما علمت - صوام قوام مجتهد في دينه شديد البصيرة في أمره قوي العزيمة شديد الشكيمة لا تأخذه في الحق لومة لائم أرطب الناس لساناً بذكر الله وأتلاهم لكتاب الله شهدته والولاية قد اكتنفته وأمور الرعية فقد استغرقت أوقاته وهو في كل ذلك لا يخل بشيء من أوراده ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها على نفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن وأذكار رتبها على أوقات الليل والنهار شهدت هذا كله منه بنفسي لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية هذا مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه ولمن علم فيه خيرا من المسلمين أو ظنه مضافا إلى سخاء نفس وطلاقة وجه.

وصفته

أبيض تعلوه صفرة جميل الوجه جدا معتدل القامة متناسب الأعضاء.

وله من الولد - على علمي - ثلاثة محمد وهو أكبرهم وعبد الرحمن وأحمد وبنات.

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم وهو سنة 515 - إلى وقتنا هذا - وهو سنة 621 فذلك مائة وست سنين على الإجمال لا على التفصيل.

وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه وتجشم الضرورة من عني بالأخبار إلى معرفته من غير تعرض إلى ما لا حاجة بنا إليه من ذكر أولاد عبد المؤمن وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده وتفاصيل أخبارهم في ولايتهم وعزلهم وأمهاتهم وكتابهم وحجابهم ووزرائهم إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة هذا على أنّا لو كفينا ضرورات المعاش وأعفينا من كد الزمان لأوردنا

من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة.

و لم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب أو سماعاً من ثقة عدل أو مشاهدة بنفسي هذا بعد أن تحريت الصدق وتوخيت الإنصاف في ذلك كله وجهدت ألا أنقص أحدا ذرة مماله ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه وبالله أستعين وإياه أسأل وإليه أضرع في إلهام الصواب والسداد في القول والعمل فهو حسبي ونعم الوكيل.

ولاية ابن أبي يعقوب بن عبد المؤمن

لم يكد عبد الواحد – أو عبد العزيز – ابن أبي يعقوب يجلس على عرش المغرب بعد موت أبي يعقوب الثاني سنة 630 حتى تفرق أمر بني عبد المؤمن واضطرمت مطالعهم حول العرش الموحدي فقام بالأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور أمير شرق الأندلس وأعلن نفسه أميراً على مرسية وتلقب بالعادل ثم أخذ يهيئ أسبابه للوثوب على مراكش ليستخلص العرش لنفسه وتم له ما أراد إذ ثار المغاربة على عبد الواحد أو عبد العزيز ابن أبي يعقوب فخلعوه وقتلوه بعد بضعة أشهر من ولايته!.

ولاية العادل بن المنصور

ولكن عرش المغرب والأندلس لم يخلص للعادل بن المنصور كما لم يخلص من قبله لعمه ابن أبي يعقوب فقد ثار عليه المغاربة في مراكش كما انتقض عليه أمراء الموحدين في الأندلس وانتهى الأمر بقتله في سنة 624.

ولاية المأمون بن المنصور

وكان أبو العلاء إدريس بن المنصور أمير أشبيلية وأخو العادل هو مدبر تلك الفتنة طمعاً في العرش فلم يكد يعلم بمقتل العادل حتى ادعى الخلافة في أشبيلية وتسمى بالمأمون وبايعه أهل الأندلس.

المعتصم بن الناصر

ولكن المغاربة في مراكش لم يرتضوه خليفة وبايعوا شاباً من ولد أخيه الناصر محمد بن يعقوب اسمه أبو زكريا يحيى ولقبوه بالمعتصم فسار المعتصم هذا إلى الأندلس على رأس قوة من الجند لإخضاع عمه المأمون فالتقيا في معركة دامية بشذونة فانهزم المعتصم وفر ناجياً بنفسه في طائفة قليلة من جنده.

وأتيحت الفرصة للمأمون ليجتاز المضيق إلى المغرب ويتسم عرش مراكش ولكن المعارك لم تفتر بينه وبين المعتصم بن الناصر و لم يخلص له عرش البلاد حتى مات في ذي الحجة سنة 629.

خروج الأندلس من طاعة الموحدين

وحين كانت المعارك الطاحنة دائرة في المغرب بين المأمون وابن أخيه المعتصم كان النصارى يستولون على بلاد المسلمين في الأندلس حصنا بعد حصن ومدينة بعد مدينة!.
وفي تلك الأثناء قام أمير من سلالة بني هود الجذاميين أصحاب سرقسطة السابقين اسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف فاستولى على مرسية وأعلن نفسه أميراً عليها وتلقب باسم المتوكل على الله وخطب للعباسيين خلفاء بغداد واتخذ السواد شعاراً ثم لم يلبث أن دانت له جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ثم فقد الموحدون غرناطة وبذلك خرجت الأندلس جملة من طاعة الموحدين عدا أشبيلية والجزيرة الخضراء.

ولاية الرشيد بن المأمون

وظن المعتصم بن الناصر أن عرش المغرب قد خلص له بعد موت المأمون ولكن أمانيه لم تلبث أن خابت حين بايع أصحاب المأمون ولده الصبي أبا محمد عبد الواحد ولقبوه بالرشيد.
واستمرت المعارك ناشبة بين المعتصم وابن عمه الرشيد حتى مات المعتصم في رمضان سنة 633.
ثم مات الرشيد غريقاً في جمادى الآخرة سنة 640.

ولاية المعتضد بن المأمون

وولي العرش بعد الرشيد أخوه السعيد أبو الحسن علي بن المأمون وتلقب بالمعتضد وفي عهده استشرف بنو زيان اصحاب تلمسان وبنو مرين ملوك المغرب فيما بعد إلى استخلاص عرش مراكش.
وقد قتل المعتضد هذا في صفر سنة 646 في موقعة نشبت بينه وبين يحيى ابن زيان أمير تلمسان.

ولاية المرتضى أبي حفص بن إسحاق

ثم تولى بعد المعتضد أمير من أحفاد أبي يعقوب يوسف اسمه أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق وتلقب بالمرتضى.

:- أبو دبوس الواثق بالله والمعتمد على الله

ولكن العرش لم يخلص للمرتضي فقد خرج عليه أمير من أمراء الموحدين اسمه أبو العلاء إدريس ويعرف بابي دبوس وتلقب بالواثق وتحالف مع بني مرين ليعينوه على استخلاص العرش من يد المرتضى وسلم إليهم مدينة مراكش ثمناً لمعونتهم ففر المرتضى ناجياً بنفسه ولكنه لم يستطع أن يفلت من أجله فمات قتيلاً سنة 665.

تغلب بني مرين

ولبث الواثق أميراً بعد المرتضى ثلاث سنين ثم أدركه أجله في معركة دارت بينه وبين بني مرين حلفائه السابقين في المحرم سنة 668 وبموته انتهى حكم الموحدين في مراكش والأندلس ليبدأ تاريخ دولة بني مرين الذين غلبوا الموحدين على أمرهم في مراكش ودولة بني الأحمر أصحاب غرناطة الذين غلبوا المتوكل بن هود على ما بيده من شرق الأندلس!.

جامع سير المصامدة وأخبارهم

وقبائلهم وأحوالهم في ظعنهم وإقامتهم:

قد قدمنا أن أول من صحب المهدي محمد بن تومرت عشرة أنفس وهم المسمون بالجماعة أولهم عبد الواحد الشرقي على الصحيح ثم عبد المؤمن ابن علي أمير المؤمنين ثم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزناج ثم فصكة بن ومزال سماه ابن تومرت عمر وكناه أبا حفص انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير وكان له عدة من الولد منهم إبراهيم وإسماعيل ومحمد أم محمد هذا ابنة عبد المؤمن ويحيى وعيسى وموسى ويونس وعبد الحق وعثمان وأحمد وعبد الواحد كان عبد الواحد هذا يتولى أمر إفريقية ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد الله سنة 603 فلم يزل والياً عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة 618.

وكان ابن تومرت يسمى فصكة هذا المبارك ويقول لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده فكان الأمر كما قال: وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده وهو المشهور بعمر إينتي وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب و لم يبق في وقتنا هذا من ولده لصلبه سوى رجل واحد اسمه عثمان فارقته .بمدينة مرسية وبها ودعته حين ارتحلت إلى هذه البلاد وقد ولوه مدينة جيان وأعمالها هذا آخر عهدي به ثم اتصل بي بديار مصر أنهم ولوه بلنسية ثم عزلوه عنها فلا أدري أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش؟ وهو

معدود عندي من جملة إخواني رضي الله عنه وعنا وعن جميع المسلمين.

ثم يوسف بن سليمان وأخوه عبد الله بن سليمان وهما من أهل تينمل من قبيلة تدعى مسكالة حسبما تقدم ثم أبو عمران موسى بن علي الضرير صهر عبد المؤمن كان ضرير البصر كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها ثم أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجي – وهو الذي أسلم نفسه للقتل وفدى عبد المؤمن بذلك على ما تقدم – ثم رجل من أهل يتنمل يعرف عندهم بابن بيجيت – أنا شاك في اسمه – ثم أيوب الجدميوي وهو الذي تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين في أول الأمر.

فهؤلاء العشيرة المسمون بالجماعة وبعض الناس يعد فيهم أبا محمد واسنار وهو رجل دباغ أسود من أهل مدينة أغمات صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مر بها فاختصه أبو عبد الله بن تومرت لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكتمانه لما يرى ويسمع فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه فلم يزل على ذلك إلى أن توفي ابن تومرت فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك توفي واشنار هذا في صدر دولة أبي يعقوب بعد أن علت سنه وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين لم يكسب شيئاً ولا خلف ديناراً ولا درهماً مع أنه لو شاء لكان أكثر الناس مالاً لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة لما كانوا يعلمون من قربه من صاحبهم وثنائه عليه في أكثر الأوقات.

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمين بالجماعة خلق من قبائلهم فعدوا فيهم ونسبوا إليهم.

وأول من يعترض في العرض العام ولد عمر بن عبد الله الصنهاجي ثم فرس عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ثم سائر أهل الجماعة على طبقاتهم من سبق وإبطاء ثم أهل خمسين وهم خلق كثير.

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم وهم الجند والأعوان والأنصار ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم سبع قبائل أولهم قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة تسمى هرغة وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين ثم قبيلة عبد المؤمن تسمى كومية وهي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة إنما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل المعطي المانع! فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تطاول أيديهم يد بكون عبد المؤمن منهم هذا على أنه – كما قدمناه – ينتسب إلى غيرهم ثم أهل تينمل وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ثم هنتاتة وهي أيضاً قبيلة ضخمة جداً وفي بعضها رياسة وشرف في الدهر القديم ثم جنفيسة وهي قبيلة عزيزة منيعة ولغتها أجود اللغات وأفصحها في ذلك اللسان ثم جدميوه وليست كلها – بل

بعضها رعية ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل هسكورة.
فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية.

وإذ قد جرى ذكرهم – أعني المصامدة – على هذا النسق فلنذكر لك الآن حفظك الله وأصلحك واصلح بك القبائل التي يجمعها هذا الاسم أعني المصامدة وحد بلادهم لتعرفهم ممن سواهم من البربر فحد بلادهم النهر الأعظم الذي يصب من جبال صنهاجة وينتهي إلى البحر الأعظم – بحر أقيانس – يدعى هذا النهر أم ربيع عليه قبيلتان إحداهما تسمى هسكورة وأخرى صنهاجة وهما من المصامدة وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لمتونة ومسوفة وسرطة وهؤلاء ليسوا مصامدة وقد كانت المملكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم فهذا حد بلاد المصامدة عرضاً وحدها طولاً من الجبل المعروف بدرن إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم هسكورة وصنهاجة ودكالة وحاحة ورجراجة ولمطة وجزولة وجنفيسة وهنتاتة وهرغة وقبائل أهل تينمل وحول مراكش قبائل منهم أيضاً وهم هرميز وهيلانة وهزرجة يدعوهم الموحدون بالقبائل فهؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة ثم يجمع الكل جنس البربر من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرنا من لمتونة ومسوفة وسرطة وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان.
وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس كالعرب والغز والأندلس والروم وقبائل من المرابطين وغيرهم.
ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان: فالصنف الأول يدعون الجموع وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها والصنف الآخر يدعون العموم وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا في النفير الأعظم وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الأجناد على ما صح عندي تلخيصه عشرة آلاف نفس هؤلاء الذين بمراكش خارجاً عما في سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند.
وإذا كان العرض العام فأول من يعترض ذرية أبي حفص عمر الصنهاجي على طبقاتهم في أسنانهم ثم بعدهم فرس الخليفة من بني عبد المؤمن ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ثم أهل خمسين ثم القبائل وأولهم عرضاً قبيلة ابن تومرت ثم بعدهم أهل تينمل ثم كومية ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم في سرعة الهجرة وبطئها.
وقد جرت عادتهم بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر وسموهم طلبة الحضر فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلون وصنف آخر ممن عني بالعلم من

المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء يدعو الخليفة ويؤمن الوزير جهراً يسمع من بعد من الناس ثم إذا سافروا لا يزال القرآن يقرأ بين أيديهم بالغدو والعشي ركباناً وإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر أن يخرج من ينادي الاستعانة بالله والتوكل عليه هذه عندهم للركوب فحينئذ يركب الناس ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيان القرابة وأشياخ الموحدين بين يديه مشاة خطوات كبيرة ثم يأمرهم بالركوب فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه فيقرءون حزبا من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيرا رفيقا ثم شيئاً من الحديث ثم يقرؤون تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا وإذا كان وقت النزول أيضاً نزلوا مشاة بين يديه إلى خيمته فإذا بلغها بسط يديه ودعا فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله.

صفة أحوالهم في إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم في جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة في القبلة ويخرج معه خواص حشمه ويركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قارئ قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصا فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين أصواتهم في نهاية الحسن قد انتخبوا لذلك من البلاد ثم يقوم الخطيب فيخطب فأول شيء يقول:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه فإنما نحن به وله.

ثم يتعوذ ويقرأ سورة "قاف" من أولها إلى آخرها ثم يجلس فإذا قام إلى الخطبة الثانية قال: الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرأ من الحول والقوة إليه ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم آله واصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جداً وعزماً وأنفدوا

وسعهم في نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاء وصدقاً وحزماً وعلى الإمام المعصوم المهدي المعلوم أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي الذي أيد بالعصمة فكان أمره حتماً واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاماً ولا ظلماً وعلى وارثة شرفه الصميم قسيمه رضي الله عنه في النسب الكريم المجتبي لوارثه مقامه العلي الخليفة الإمام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وعلى أبي يعقوب ولي ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء
والاختصاص اللهم وأرض عن المجاهد في سبيلك المحيي سنة رسولك الخليفة الإمام أبي يوسف أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وعلى الخليفة الإمام أبي عبد الله ابن الخلفاء الراشدين اللهم وانصر ولي عهدهم الطالع في أفق سعدهم القائم بالأمر من بعدهم الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين اللهم كما شددت به عرا الإسلام وجمعت على طاعته قلوب الأنام ونصرت به دين نبيك محمد – عليه الصلاة والسلام – فأقض له بالنصر المقرون بالكمال والتمام اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين فاجعله من المقتفين لآثارهم المهتدين بمنارهم المقتبسين من أنوارهم اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة إخوان نبيك وطائفة مهديك الذين أخبرت عنهم في صريح وحيك أنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة وأمدهم وكافة من انتظم في سلكهم من أنصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتمكين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعز ظهير وأكرم نصير.
ثم يدعو وينزل فيصلي فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على ما تقدم فهذه كليات سيرهم مجملة على ما يقتضيه شرط التقريب وفي أثناء ذلك تفاصيل يطول شرحها وليس بالناظر في هذا الكتاب إليها كبير حاجة إذ قد بين له ما يستدل على ما لم يرسم في هذه الأوراق بما رسم.

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا أصلحك الله منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة وقد تقدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية أعلى الله رتبها فما كان من إحسان فإلى تلك الهمة العلية نسبته وعنها منبعثه وما كان من غير ذلك فإغضاؤها يستره ومسامحتها تغمره.

وقد رسم مولانا – حرس الله مجده – أن يضاف إلى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه

وتحديد ما بينها من المراحل عددا من لدن برقة إلى سوس الأقصى وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بداً من الجري على العادة في سرعة الإجابة وامتثال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل في باب المسالك والممالك وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبي عبيد البكري الأندلسي وكتاب أبن فياض الأندلسي أيضاً وكتاب ابن خردادبه الفارسي وكتاب الفرغاني وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشان المستوعبة له ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأي مولانا العالي ما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورها على التقريب من غير تطويل جارين في ذلك على ما سلف من عادتنا في سائر الكتاب فنقول وبالله التوفيق ومنه الإعانة: قد تقرر واشتهر أن أول حد البلاد المصرية مما يلي الشام العريش وآخره مما يلي المغرب مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة هذا عرض الديار المصرية وحدها في الطول من ثغر أسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومي هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأنز

أولاً: المدن العامرة على الساحل

وأول حد بلاد إفريقية والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة المدعوة ببرقة بناها الروم فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعاً لأهلها افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة – أعني أنطابلس – إلى مدينة طرابلس المغرب قريب من خمس وعشرين مرحلة.

اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان

وما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب خمس وأربعون مرحلة وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً وكان فيما بين الإسكندرية وطرابس المغرب حصون متقاربة جداً فإذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية أو من الإسكندرية إلى طرابلس في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب وذلك في حدود حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجي وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبني العباس فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا واستوطنتها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن

قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم فهم اليوم بها وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم.

ومدينة أنطابلس هذه خراب لم يبق منها إلا آثارها وفيما بين برقة وطرابلس حصن يسمى طلميثة بالقرب منه معدن كبريت فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة إلى هذا الوقت وهي أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها في مدة ملكهم وفي ملك أبي يعقوب منهم المملوك قراقش المتقدم ذكره في ترجمة أبي يوسف ثم أخرجه منها المصامدة واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثير من إفريقية حسبما تقدم تلخيصه ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهي في ملكهم إلى وقتنا هذا وهو سنة 621 ه.

بلاد إفريقية الساحلية

فحد بلاد إفريقية مما يلي المشرق مدينة أنطابلس المذكورة وحدها مما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسطنطينة الهواء سميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعتها ومسافة ما بين أنطابلس وقسطنطينة المغرب قريبة من خمس وخمسين مرحلة فهذا حد إفريقية طولاً وعرضها يختلف بحسب مزاحمة الصحراء العمارة ومباعدتها وسميت إفريقية بذلك لنزول أفريقش من ولد حام بن نوح بها وأفريقش هذا هو أبو البربر فالبربر كلهم من ولد حام بن نوح خلا صنهاجة فإنهم يرجعون إلى حمير هذا كله قول أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه من لدن ذكر افريقش إلى ذكر صنهاجة.

فأول مدن إفريقية المعمورة طرابلس المغرب المتقدم ذكرها ومنها إلى مدينة تسمى قابس عشر مراحل وقابس هذه على ساحل البحر الرومي وكذلك طرابلس وتنصب إلى قابس هذه أنهار من بعض تلك الجبال التي تليها فهي بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعناباً ومن قابس هذه إلى مدينة صغيرة على الساحل أيضاً تسمى سفاقس أربع مراحل ومن سفاقس إلى مهدية بني عبيد ثلاث مراحل وقد تقدمت صفة المهدية في أخبار أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبظاهر المهدية المذكورة وقريب منها جداً مدينة تدعى زويلة بناها بنو عبيد حين بنوا المهدية فاختصوا المهدية لأنفسهم وحشمهم وأعيان جندهم ووجوه قوادهم وأسكنوا زويلة هذه سائر الناس من الرعية والسودان وأراذل كتامة وغيرهم من أتباعهم ولما ارتحل المعز إلى مصر بعد أن افتتحها على يدي خادمه جوهر ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه فإليهم ينسب الباب والحارة التي بالقاهرة اليوم ومن مهدية بني عبيد إلى مدينة تسمى سوسة وإليها تنسب الثياب السوسية مرحلتان ومن سوسة إلى مدينة تونس ثلاث مراحل و لم تكن تونس هذه في قدم

الدهر على أيام الإفرنج مدينة وإنما بنيت في أول الإسلام بناها عقبة بن نافع الفهري لمصلحة رآها وإنما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطاجة بينها وبين تونس نحو من أربعة فراسخ.

شأن مدينة قرطاجة في القديم

وهذه المدينة أعني قرطاجة هي كانت حاضرة إفريقية أيام الروم وهي مدينة عظيمة ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيتهم لهم وفرط ما يعجب منه من تأمله ويعتبر فيه من وقف عليه وذلك أنهم جلبوا إليها المياه من بعد شديد وتحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أيسرها جميع من في هذا العصر وكانوا يضاهرن بها مدينة القسطنطينة العظمى المنسوبة إلى قسطنطين بن هيلان ملك الإفرنج ثم لما افتتح المسلمون إفريقية في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه خربوا هذه المدينة المذكورة واتخذوا مدينة القيروان دار ملكهم ومقر ولاتهم ومجتمع جندهم ومركز جيوشهم وأسسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة وكان هناك قبل ذلك دير معظم عند الروم يزورونه من أقاصي بلادهم فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً وسموا المدينة تونس باسم الراهب الذي كان في ذلك الدير فما زالت تونس معمورة إلى وقتنا هذا.

ولما خربت مدينة القيروان على ما سيأتي الإيماء إليه صارت مدينة تونس حاضرة إفريقية ومقر ولاتها وموضع مخاطبة أولي الأمر منها وكل ما بتونس من جيد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة.

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعى بونة ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج جيدة ست مراحل وفيما بين تونس وبونه بليدة تسمى بني زرت بينها وبين تونس يوم تام في البر للمجد ولبني زرت هذه شأن غريب وذلك أنه يخرج في بحرها كلما طلع هلال نوع من السمك لم يكن في الشهر الذي قبل ذلك هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلة وهذا منسوب إلى الطلمسات اعتنى به من عني بخدمة القمر ومن ومن مدينة بونه إلى مدينة قسطنطينة التي هي أحد حدي إفريقية خمس مراحل وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلاً.

هذا ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن إفريقية وبها مما يلي الصحراء مدن أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغت مما على ساحل البحر من بلاد المغرب.

بلاد المغرب الساحلية

ومن قسطنطينة المغرب إلى بجاية خمس مراحل على الرفق وبجاية هذه هي دار ملك بني حماد الصنهاجيين الذين تنتسب قلعة بني حماد اليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب إلى موضع يعرف بسيوسيرات وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل.

لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها في ولاية يحيى منهم أبو محمد عبد المؤمن بن علي حسبما سبق.

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغن قريب من أربع مراحل وهذه المدينة – المعروفة بالجزائر – على ساحل البحر الرومي وكذلك مدينة بجاية ومن الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تسمى تنس أربع مراحل ومن مدينة تنس إلى مدينة وهران سبع مراحل ومن مدينة وهران إلى مدينة سبتة على التقريب ثماني عشرة مرحلة.

ضيق البحر بين المغرب والأندلس

وبساحل سبتة هذه يلتقي البحران بحر مانطس الذي هو بحر الروم وبحر أقيانس الذي هو البحر الأعظم وهذا أول الخليج المعروف بالزقاق.

وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ثمانية عشر ميلاً ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهي ذلك من عدوة البربر إلى موضع يدعى قصر مصمودة بينه وبين سبتة نصف يوم ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيرة طريف مقابلاً لقصر مصمودة المذكور فأضيق ما يكون البحر هنالك وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلاً ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر في كل وقت من أوقات النهار وقد ذكر المؤرخون أن الروم بنت في قديم الدهر قنطرة على هذا الخليج ثم طغت المياه فغطتها فيذكر قوم من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوان سكون البحر وهدوئه حين تصفوا المياه.

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة يوم تام في البر وطنجة هذه آخر الخليج الذي به يلتقي البحران وهي على ساحل البحر الأعظم الذي لا عمارة وراءه وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط المتصل ببحر الهند والحبشة – وطنجة هذه آخر بلد بالمغرب المحقق وما بعدها من البلاد فإنما هو في الجنوب كمدينة سلا ومدينة مراكش – ثم لا يزال دائراً في الجنوب إى أن يأتي بلاد الحبشة والهند.

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة ومسافة ما بين ذلك على التقريب ست وتسعون مرحلة فهذا ذكر المدن التي على ساحل البحر من بلاد المغرب.

ثانيا: البلاد التي ليست على ساحل

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن إفريقية والمغرب فنقول بلاد إفريقية من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمى قفصة ثلاث مراحل.

ومن مدينة قفصة إلى مدينة توزر أربع مراحل وتوزر هذه هي حاضرة بلاد الجريد وأم قراها وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين قسم يسمى قسطيلية وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها وقسم يسمى الزاب وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة وأعمالها.

ومن مدينة توزر إلى مدينة بسكرة أربع مراحل وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس بينها وبينها مرحلتان فهذه المدن التي تلي الصحراء من بلاد إفريقية ويتخللها قرى كثيرة لم نذكرها لصغرها.

شأن القيروان في قديم الزمان

وفيما بين مدينة تونس وتوزر مدينة القيروان المشهورة منها إلى الساحل ثلاث مراحل وهي كانت – أعني القيروان – دار ملك المسلمين بأفريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يولون عليها الأمراء من قبلهم إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبد الأغالبة بملك إفريقية بعض الاستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن إبراهيم بن أغلب التميميون فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها أيام كونهم بأفريقية ثم ولوا عليها حين ارتحلوا إلى مصر زيري بن مناد الصنهاجي فلم يزل زيري وبنوه ملوكاً عليها إلى أن كان آخرهم الذي أخرجه العرب عنها تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيري بن مناد المذكور فانتهبتها الأعراب وخربتها فهي كذلك خراب إلى اليوم فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية.

وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطبني وغيرهما من الكتب فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها في كل وجه فمنهم من قصد بلاد مصر ومنهم من قصد صقلية والأندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها إلى اليوم.

فهذه نبذة من أخبار إفريقية وفيها مدن كثيرة قد خربت لا أعرف أسماءها لقلة معرفتي بتفاصيل أحوال إفريقية لأني لم ادخل منها إلا مدينة تونس خاصة أتيتها في البحر من الأندلس وذلك سنة 614 وإنما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع.

وفي خراب القيروان على ما تقدم يقول: أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد ابن شرف الجذامي:

ترى سيئات القيروان تعاظمت		فجلت عن الغفران والله غافر !

تراها أصيبت بالكبائر وحدها		ألم تك قدماً في البلاد الكبائر؟

بلاد المغرب

فقسطنطينة آخر بلاد إفريقية ما يلي البحر منها وما يلي الصحراء وما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية فأول ذلك بليدة صغيرة قبلي بجاية في البر تسمى ميلة بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ومن بجاية إلى قلعة بني حماد أربع مراحل وهي أيضاً – أعني القلعة – قبلي بجاية.

طريق السفار من بجاية إلى مراكش

وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية إلى مراكش فمن بجاية إلى مدينة تلمسان عشرون مرحلة وفيما بين ذلك بليدات صغار كمليانة ومازونة ووهران وقد ذكرناها في بلاد الساحل وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلاً وذلك يوم للمجد ومن مدينة تلمسان إلى مدينة فاس عشر مراحل سبع منها إلى المدينة التي تدعى رباط تازا وثلاث إلى فاس وقبلي مدينة تلمسان في الصحراء مدينة سجلماسة منها إلى تلمسان عشر مراحل وهذه المدينة – أعني سجلماسة – متوسطة في الصحراء مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء فمن حيث قصدت إليها من أحد هذه البلاد كان ذلك مسافة عشر مراحل.

التعريف بمدينة فاس

ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان – كما ذكرنا – بعيث العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم

أفصح اللغات في ذلك الإقليم وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب و لم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عينا ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً.

ومن مدينة فاس إلى مدينة مكناسة الزيتون يوم تام للمجد ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سلا أربع مراحل.

مدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقيانس وهي في الجنوب كما ذكرنا ينصب إليها نهر يسمى وادي الرمان يصب في البحر الأعظم المذكور.

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلي مراكش مدينة عظيمة سموها رباط الفتح كان الذي اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأتمها ابنه يعقوب وبنى فيها مسجداً عظيماً قد تقدم ذكره وقيل إنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك وذلك أنه قال: لهم تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر يعني البحر الأعظم ثم يضطرب أمركم وينقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان فلهذا سموها رباط الفتح وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة النهر المذكور وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يجزر النهر فإذا مد عبروا في القوارب.

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسي المملكة تسع مراحل فمراكش آخر المدن بالمغرب وكان الذي اختطها ملك لمتونة تاشفين بن علي ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ثم زاد فيها بعدهما علي بن يوسف بن تاشفين ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت في نهاية الكبر فهي اليوم طولاً وعرضاً قدر أربع فراسخ هذا إذا ضمت إليها قصور بني عبد المؤمن وأجرى المصامدة فيها مياها كثيرة لم تكن

فيها قبل ذلك وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك فصارت بذلك في نهاية الحسن وغاية الكمال كما قال الأول:

ليس فيها ما يقال له كملت لو أنه كملا

ترجمة المؤلف بقلمه

وبهذه المدينة أعني مراكش مسقط رأسي وهي أول أرض مس جلدي ترابها وكان مولدي بها لسبع خلون من ربيع الآخر سنة 581 في أول أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي.

ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس فلم أزل بها إلى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين في علم القرآن والنحو.

ثم عدت إلى مراكش فلم أزل مترددا بين هاتين المدينتين.

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس في أول سنة 603 فأدركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن فلم احصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم انفردوا دوني بكل فضيلة ولا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم.

بلاد السوس الأقصى

فمراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورة به وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة إلا بليدات صغار بسوس الأقصى فمنها مدينة صغيرة تسمى تارودانت وهي حاضرة سوس وإليها يجتمع أهله ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زجندر هي على معدن الفضة يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن وفي بلاد جزولة مدينة هي حاضرتهم أيضاً تسمى الكست وفي بلاد لمطة مدينة أخرى هي حاضرتهم أيضاً تسمى نول لمطة فهذه المدن التي وراء مراكش فأما تارودانت وزجندر فدخلتهما وعرفتهما و لم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجندر وأما مدينة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلهما خاصة.

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزيبق وغير ذلك وأسماء مواضعها:

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طلميثة.

وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان فيه معدن حديد.

وفيما بين سلا ومراكش قريباً من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً موضع يدعى إبسنتار فيه معدن حديد أيضاً وليس هذا الموضع على طريق السفار إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه.

وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى وركناس فيه معدن فضة وقد ذكرنا معدن زجندر الذي بسوس غير أن فضته ليست هناك أعني فضة معدن زجندر.

وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ومعدن توتياء وهي التوتياء التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر.

فهذا جملة ما بالعدوة من المعادن.

المعادن بجزيرة الأندلس

وبجزيرة الأندلس معادن أيضاً فمنها معدن فضة ببلاد الروم في الجهة المغربية بموضع يدعى شنترة.

وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زيبق منه يفترق الزيبق على جميع المغرب.

وفي أعمال المرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية فيه معدن رصاص.

وفي أعمال المرية أيضاً على يوم ونصف منها موضع يسمى بكارش فيه معدن حديد أيضاً.

وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أوربة على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد.

فهذا أيضاً جملة ما بالأندلس من المعادن فأما الذهب فمسوق إليها من بلاد السودان.

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس يسمى بجردة ينصب من جبل هنالك ينتهي إلى البحر الرومي.

ونهر بجاية الذي يسمى الوادي الكبير هو متنزهها وعليه بساتينها وقصورها.

ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادي ملوية يصب في البحر الرومي أيضاً.

ونهر يدعى سبو هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها.

ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة.

وهذان النهران ينصبان إلى البحر الأعظم بحر أقيانس بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة.

وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعى بهتا ينصب إلى البحر الأعظم أيضاً ونهر سلا المتقدم الذكر.

وفيما بين سلا ومراكش وعلى ثلاث مراحل من مراكش نهر عظيم يدعى أم ربيع ينصب من جبال صنهاجة من موضع يدعى وانسيفن يصب في البحر الأعظم أيضاً.

ونهر على أربعة أميال من مراكش عليه قنطرة عظيمة يسمى تانسيفت.

ونهر سوس الأقصى.
ونهر ببلاد حاحة يسمى شفشاوة.
هذه الأنهار كلها تصب إلى البحر الأعظم فهذه جملة الأنهار الكبار التي بالمغرب التي لا يقل ماؤها ولا ينقطع شتاءً ولا صيفاً و لم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التي تيبس في الصيف.

ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم بجزيرة أشبانية وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب فإغنى ذلك عن إعادته ههنا وكان دين أهلها في الدهر القديم دين الصائبة من عبادة الكواكب واستنزال قواها والتقرب إليها بأنواع القرابين شهدت بذلك طلسمات وجدت بها وضعتها القدماء من أهلها ثم انتقل أهلها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام.
وكانت هذه الجزيرة أعني الأندلس منتظمة في مملكة صاحب رومية يستعمل عليها من شاء من أصحابه فلم تزل كذلك والروم يملكونها وقاعدة ملكهم منها مدينة تسمى طالقة – على فرسخين من أشبيلية – وهي مدينة عظيمة باق أثرها إلى هذا اليوم إلى أن غلبهم عليها القوطا وهي قبيلة من قبائل الإفرنج فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى.
وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة فملكوها أضخم ملك قريباً من ثلاثمائة سنة وكانت دار ملك القوطا مدينة طليطلة وهي في قريب من وسط الجزيرة فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم كما ذكرنا إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان من سنة 92 من الهجرة علىما تقدم في صدر الكتاب.
فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم فلم تزل قرطبة على ذلك إلى ان انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر حسبما تقدم في صدر هذا الكتاب.
فهذا تلخيص أخبار جزيرة الأندلس.

مجاز الأندلس

وأنا ذاكر إن شاء الله أول ما يلقاه من يعبر إليها من حدودها ومدنها فأول ذلك أني أقول: قد تقدم أن البحرين: بحر الروم وبحر أقيانس يلتقيان بساحل سبتة ثم يضيق الخليج ويتقارب العدوتان حتى ينتهي ذلك إلى قصر مصمودة من العدوة وجزيرة طريف من الأندلس ثم يأخذ في السعة وأول هذا الخليج مما يلي طنجة الجبل الخارج في البحر الأعظم المعروف بطرف أشبرتال وآخره الجبل الذي شرقي سبتة فإذا عبرت

إلى جزيرة الأندلس من سبتة كان الذي تنزل به المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وإذا عبرت من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هي في التحقيق على ساحل البحر الرومي وجزيرة طريف على ساحل البحر الأعظم وبين الموضعين أعني الخضراء وطريف ثمانية عشر ميلاً.
وفي شرقي الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ويسمى أيضاً جبل طارق وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفتح وعنده يلتقي البحران بجزيرة الأندلس.
فهذا تلخيص التعريب بخبر مجاز الأندلس.

البلاد التي تغلب عليها النصارى إلى سنة 621

فأما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها فأنا ذاكر أسماء المدن التي بأيدي النصارى في وقتنا هذا ومواضعها من الجزيرة من مشرق ومغرب من غير تعرض إلى ما بينها من المسافات إذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك: فأول المدن في الحد الجنوبي المشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشنونة ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة – الثغر الأعلى – هذه البلاد التي على ساحل البحر الرومي المذكور أعادها الله للمسلمين!.
والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وأفراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة – لعنه الله – وهي الجهة التي تسمى أرغن.
وفي الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن مدينة طليطلة وكونكة وأقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط ووبذة وأبلة وشقوبية هذه كلها يملكها الأدفنش – لعنه الله – وتسمى هذه الجهة قشتال – الثغر الأوسط –.
وتجاور هذه المملكة فيما يميل إلى الشمال قليلاً مدن كثيرة أيضاً وهي سمورة وشلمنكة والسبطاط وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج – لعنه الله – وتسمى هذه الجهة ليون.
وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الأعظم أقيانس مدن أيضاً منها مدينة الأشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنت ياقو ومدينة يابرة ومدن كثيرة ذهبت عني أسماؤها يملكها رجل يعرف بابن الريق – لعنه الله –.
فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلي بلاد المسلمين ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغلها في بلاد الروم لم يملكها المسلمون قط لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها.

المدن التي بقيت بأيدي المسلمين إلى سنة 631

وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد وعدد المراحل التي بينها وقربها من البحر وبعدها حتى يبين ذلك إن شاء الله تعالى: فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم حصن صغير على شاطئ البحر الرومي يسمى بنشكلة بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلاً.

ثم مدينة بلنسية وهي مدينة في غاية الخصب واعتدال الهواء كان أهل الأندلس يدعونها فيما سلف من الزمان مطيب الأندلس والمطيب عندهم حزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومي قريب من أربعة أميال.

ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة بينها وبينها مرحلتان.

وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر وسميت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم قد حف بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة.

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التي على ساحل البحر الرومي يوم تام.

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام.

ومن مرسية إلى البحر الرومي عشرة فراسخ.

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل.

وبين ذلك بلاد صغار أولها مما يلي مرسية حصن لرقة ثم حصن آخر يدعى بلس ثم حصن آخر يدعى قلية ثم بليدة صغيرة تسمى بسطة ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادي آش ويقال لها أيضاً وادي الأشي هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها في أشعارهم فهذه البليدات التي بين أغرناطة ومرسية.

وفي مقابلة وادي آش على ساحل البحر الرومي مدينة المرية – مخففة الراء – وهي مدينة مشهورة تضرب أمواج البحر في سورها بينها وبين وادي آش هذه مرحلتان للمجد.

وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر الرومي حصن منكب وهي بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً في سورها بينها وبين المرية أربع مراحل.

وبين حصن منكب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل.

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجد.

وبالجزيرة الخضراء أو بجبل الفتح يلتقي البحران كما ذكرنا فالذي على ساحل البحر الرومي من بلاد

المسلمين بالأندلس الجزيرة الخضراء ومالقة ومنكب والمرية ودانية وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ووراء دانية الحصن الذي يسمى بنشكلة وقد تقدم ذكره.

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس أعني ما يضرب الموج في سوره فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر كما ذكرنا قريب من أربعة أميال.

ثم نعود إلى ذكر البلاد التي ليست على الساحل فنقول: من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلاً وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرفق.

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيان مرحلتان فبين جيان وبين البحر الرومي ثلاث مراحل.

ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان.

ذكر قرطبة

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بني أمية بالأندلس وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة.

حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال: كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها؟.

وقيل إنه كان فيها ثلاثة آلاف مقلس وكان لا يتقلس عندهم في ذلك الزمان إلا من صلح للفتيا.

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها أن الماشي كان يستضيء بسروج قرطبة ثلاث فراسخ لا ينقطع عنه الضوء.

وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم.

وحكى أبو مروان بن حيان – رحمه الله – في أخبار قرطبة أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً فبلغ ذلك الحكم فسأل عن علته فقيل له أنهم يقولون ما ندري هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبها فاستحضر الشهود والقاضي أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطي المتقدم الذكر في قضاته واستقبل القبلة وحلف باليمين الشرعية التي جرت العادة بها أنه ما أنفق فيه درهماً إلا من خمس المغنم! وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناه وزاد فيه أبو عامر محمد محمد أبي عامر زيادة أخرى من هذه النسبة فهو مسجد لم ينفق فيه درهم إلا من خمس المغنم وهو معظم القدر عند أهل الأندلس مبارك لا يصلي فيه أحد ويدعو بشيء من أمر الدنيا

والآخرة إلا استجيب له قد عرف ذلك من أمره واشتهر.

وحكى غير واحد أن الأدفنش – لعنه الله – لما دخلها في شهور سنة دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم و لم ترث حتى خرجوا منه وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة.

وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء.

ذكر أشبيلية

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة أشبيلية ثلاث مراحل وأشبيلية هذه هي حاضرة الأندلس في وقتنا هذا وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان حمص سميت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس.

وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف وأتى فوق نعت كل ناعت وهي على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة وتنصب فيه أنهار كثيرة فلا يصل إلى أشبيلية إلا وهو بحر خضم تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ترسي على باب المدينة بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلاً وذلك مرحلتان.

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بني عباد حسبما تقدم ثم صيرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس منها ينفذ أمرهم وفيها يستقر ملكهم وبنوا بها قصوراً عظيمة وأجروا فيها المياه وغرسوا البساتين فزاد ذلك في حسن هذه المدينة أعني أشبيلية.

ومن أشبيلية إلى مدينة شلب التي على ساحل البحر الأعظم خمس مراحل وبين ذلك بليدات صغار كمدينة لبلة وحصن مرتلة ومدينة طبيرة ومدينة العليا والمدينة المعروفة بشنتمرية هذه البلاد كلها فيما بين شلب وأشبيلية من مغرب الأندلس.

وبين قرطبة بين البحر الرومي خمس مراحل وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذي ينصب إلى أشبيلية يعظم جداً حتى تصعد فيه السفن كما تقدم وينحدر من أراد في القوارب من قرطبة إلى أشبيلية ويصعدون من أشبيلية إلى قرطبة كهيئة النيل.

وبين مدينة أشبيلية ومدينة شريش مرحلتان.

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل.

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التي بين كل بلد وبلد على التقريب منها ما سافرت فيه بنفسي ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين.

فصل: أنهار الأندلس الكبار المشهورة

وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة انهار الأندلس الكبار المشهورة بها: فأول ذلك مما يلي المشرق نهر طرطوشة وهو نهر عظيم ينصب من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة ثم يصب في البحر الرومي وبين طرطوشة وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلاً.

ثم نهر مرسية وهو يصب أيضاً في البحر الرومي منبعه من جبل شقورة وهو قسيم نهر أشبيلية منبعهما واحد ثم يفترقان فينصب هذا إلى أشبيلية وهذا إلى مرسية.

ثم نهر أشبيلية الأعظم – وقد تقدم ذكر منبعه – ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى أشبيلية أنهار كثيرة فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ثم يصب في البحر الأعظم المسمى أقيانس.

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو وهو الذي عليه مدينة طليطلة وشنترين وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الأشبونة وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم.

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها.

وقد نجز بحمد الله جميع هذا الإملاء حسبما رسمه مولانا وجريت في ذلك كله على عادتي في التلخيص وتركت أسماء القرى والضياع والأنهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو إليه الحاجة ولا يخل بالتصنيف تركه فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وفق مراده فهي البغية الكبرى والأمنية العظمى التي لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسابق إليها وإن يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحرم الإصابة و لم يقع على المراد ولا في المقصود!.

وبالله أعتصم وإياه أسترشد وعليه أعتمد وهو حسبي ونعم الوكيل.

وكان الفراغ من هذا الإملاء يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وحسبنا

الله ونعم الوكيل

الفهرس